عدنان كنفاني

أخـافُ
أن يدركَـني الصبــاح

* قصــص *

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق - 2001

الإهـــداء

إلى الذين مهروا جباههم وجراحهم بمشكاة النور..

وسطّروا بالأحمر القاني وثيقة خلودنا..

إلى شعب أضاف مفردة الانتفاضة إلى قاموس الكلام

فأضاءت وهجاً "ليس كمثله شيء"..

إلى رجال ونساء وأطفال

يصنعون لنا ألق المستقبل.

أهدي كل خفقات اليراعات..

عدنان كنفاني

أخاف أن يدركَني الصبـــــاح

مهداةٌ إلى صديقي "أبو عرب"
الذي ما زال في الأسر..

هل كان الأمرُ يستحق كلَّ هذا العناء.؟

تحدّثي عنّي يا شهرزاد، فأنا الحكاية..!

أذكر أمي وأغنياتها المخنوقة، تطوي قنباز أبي المقصّب عند عودته قبيل كل مساء، وتسجّيه برفق كأنه قطعة من حكاياتك، فوق صندوق خشبي محدّب.

ثم تغسل حطتّه البيضاء الحريرية، وتبقى واقفةً على عتبة باب الدار تنفضها في وجه الريح حتى تجّف، تعلقُّها على المسمار.. فتنصبّ برّاقةً مثل شفرة سيف مسرور..

تفعلُ كذلك كل مساء..

يجلس والدي على حجر أسود عريض، مزروع منذ قرون في مكانه خارج باب الدار..

يصفق بيديه، فتهبط رفوف حمامٍ، تملأ ألوانها الزاهية الساحة الترابية، ينثرُ حبوب الذرة.. ويبدأ صراعُ حميم بين الطيور الأليفة، ويضّج الفضاء بصوت الهديل..

نخرج متراكضين وراء بعضِنا يأخُذنا حماسُ اللعب، فتفزعُ الطيورُ إلى حين، تقفزُ مرتفعةً، تدركُ أن الأمر لا يستحق، تحطُ ثانيةَ بين يديه..

يتبعنا صوتُه الأجش..

– اقلب تقلب ترضع..

فنتوارى بين أشجار الخروب البعيدة حتى نرى شبحه المسربل بالأبيض يغيب داخل الدار، ندركُ أنه سيدخل المضافة، يحمّص القهوة، ويستعدُ لاستقبالِ الرجال..

يحمل بين يديه أخي سعيد وسنوات عمره الثلاث، يسجّيه على فراش رقيق، يحرصُ أن يستقبلَ وجهه الجنوب، ويهيل على جسده حطّتَهُ البيضاء، يغلق باب الغرفة الأخيرة بالمفتاح، تلحقه أمي تضرب على صدرها، يمسكها، يكتم صوتها بكفّ يده الكبيرة..

– إذا سمعتُ صرخةً واحدةً.. أنت طالق..

كان القيد ثقيلاً يا شهرزاد..

كأنني ثور "أبو حسن" الذي جنَّ فجأة، وراح يطعن بقرنيه كل عابر سبيل..

يومها شدّوا قوائمه بقيد واحد. أربعة أساور من حديد، تجمعها جنازير قصيرة.

مطويّ على صندوق أمي المحدّب..

أطرافي الأربعة تتوجّع، وتبصقُ دماً وصديداً أصفر اللون..

كنت مثل قطّة.. أنطوي تحت نافذة غرفة أمي.. يتسرّب لهاثها إلى أذنيّ، أسمع أنينها المكبوت، وتلفحُني بين الفينة والأخرى أنفاسُها الحرّة..

تهمس ولا تجرؤ حتى على الحزن..

– سعيد مات يمّا.. بدال ما يحضروا طهوره، يحضروا جنازته..

وتنهال على صفحة وجهها دموع ما رأيت مثل غزارتها كلَّ عمري.. شممتُ رائحَتَها ممسّكةً تنبعث سخيّةً من "مناسف" البرغل والرز..

يومها لم أبكِ..

بقيت صاحياً.. لم أنم، وحين شقَّ صوت المؤذن حلكة العتمة، يفسح الطريق أمام زحف فجر جديد، أدركتُ أن الشمس ستستبيح بأشعتها الصفراء الساحات والدور والبيادر

كما في كلِّ صباح..

صوته يضرب أذنيّ في اللحظات الحالكات..

– البكا للنسوان يابا..

لو قلتُ آه واحدة، أعطيه انتصاراً ليس له مثيل..

صدّقيني، لقد ضاقت سبل المعركة، ولم يتبقَّ في ساحتِها إلا أنا وهو.. أنا أو هو..

كنت أحمل بارودة، أعلّق على ماسورتها صبوتي، وتحدّثُني كما حكاياتِك، تركّبُ انتصاري ليلة إثر ليلة فأراه بارقاً مشعّاً.. وتحمل همّي وحُلمي..

اليوم أحملُ قيدي..

تحسستُ أطرافي فوجدت فيها بقيةَ من حياة، تقول لي:

– ما زلت هنا، وما زال هنا، والمعركة مفتوحة..

عيناه الزرقاوان الغائرتان، وفمُه الصغير الصارم الخالي من الشفتين كأنه يرجوني، يقسم علي لو أقول آهِ واحدة، ليخلصّني من العذاب..

كيف أعطيه تلك المتعة، وذلك النصر.؟

كان القيد ثقيلاً يا شهرزاد..

حملتُه ثلاثين يوماً، صار قطعةً مني.. مثل يدي وساقي ورأسي..

رفاقي يحشونه خلسةً بالخرق، لتفصل بين حوافيه

الحادّة ولحمي..

لـو قلـت لـك لـن تصـدّقي، لـو ينزعونـه عنـي سـأفقد إحساساً رائعاً..

أراه يعتصر خيبتَهُ وهو يتابع خطواتي المطّوية تحت ثقل جسدي، تقول لي شفتاهُ المعصورتان حتى الاختفاء..

– لو تقول آهِ واحدة..

كان النطعُ أقرب إليك من الوريد، جمالُك يا شهرزاد ألقى بك تحت شفرةِ السيف..

ذلك المأفونُ يملك كلَّ شيء حتى رقاب الناس، وأنت في ثوبك الشفيف، ورهبَتِك وخوفك..

كيف خلقت سبيل خلاصك.. وأيقظتِ شهوتَهُ ألفَ ليلةِ وليلة.؟ ثم أجهزتِ عليه..

كان الوقتُ مساءً والشمسُ تودّع النهار على حدود الأفق، يركض بفرح، يحسُّ أن الحفلَ وهذا الجمهور يعنيه، تتعثّر خطواته الصغيرة، يسقط في الحفرة المعدّة لشواء الذبائح، يأكُلُهُ الجمر ويموت..

هل يستحق الأمر كل ذلك العناء.؟

يوم غلبني نزيفُ القيدِ واستهلكَ دمي، حملوني إلى المستشفى.. قالوا وهم يحسبون بأنَهم يزّفون لي البشرى، إنهم استبدلوا بمدير السجن الذي لا يحسنُ الترويض،

ضابطاً جديداً..

نزعوا القيد من أطرافي، جاهدوا ليقتلعوه من لحمي الذي انغرز فيه، وترك مكانه حتى اليوم ندباً وبثوراً زرقاء وسوداء..

جلس قبالتي ينقر بعصاه القصيرة على الطاولة، ينظر في وجهي بقلق، ويقضم غيظه، ثم همهم:

– تراجعا عن إعلان الإضراب.. أرسلنا طاهر إلى سجن الرملة.. ومحمود إلى مستشفى الهداسا..

ازدادت سرعة نقرات عصاه على الطاولة، كأنه يوصل إلى لهفتي رسالةً واعدة.. ثم دفعها بقوة حتى لامست صدري..

– ماذا عنك..؟

يقولون إن سجن الرملة "للأوادم"، نسمع كثيراً عن حياة الترف التي يعيشُها المعتقلون فيه قياساً إلى المعتقلات الأخرى، ونعرف أيضاً ماذا يعني قضاء مدّة اعتقال في مستشفى..

الناس تنتظر شيخ البلد ليطهّر الصبي..

يومها رأيت أبي يمشي لأول مرة بانكسار وراء نعش سعيد، يخفي قنبازه المقصّب تحت عباءة سميكة، ويلّف رأسه ونصف وجهه بحطّة منقطّة غامقة اللون..

لأننـي من أقدم المعتقلين، كنت واحداً من ثلاثة ننظّم حركتهم، اتفقنا علـى إعلان إضراب شامل واعتصامٍ داخل القواويش في الخامس من أيار القادم، المصادف لأول زيارة يقوم بها وزير الأمن، ومدير السجون، والمحافظ ومجموعة من مرافقيهم..

كنت أعلم أن تراجعي يرسلني كما أرسل رفيقيّ إلـى سجن "خمس نجوم.." أو إلـى مستشفى مكتظّ بملاءات بيضاء ناصعة، وستائر وردية، وحسناوات..

ما قيمةُ لياليك يا شهرزاد.؟ ما قيمة ألف جرعة هوان انسفحت على جسدك، في ألف ليلة..

إن توقفْتْ حكاياتك، تموتين..

كيف أستطيعُ التراجع عن قدري واختياري ومعركتي.؟

هل أجرؤ أن أفعل وأغنيات أمـي المخنوقة ببحّتها الجارحة تستحلفني.؟

ظهيرة اليوم التالي، هطلت مع انتشار الخبر المفجع غيمات ذهول فوق رؤوس الناس، وليس لهم والدهشة تمسك بتلابيبهم إلا ثوابُ مرافقة الجنازة.. يوارونه الثرى، ثم ينفضّون.. يعصرهم الحزن إلى بيوتهم وقراهم القريبة..

بعد أيام مات أبي.. قالوا انفطر قلبه.. وقتله..

حملوني فوق أكتافهم.. رفعت يدي، وصرخت:

- صامدون حتى سقوط المشروع الصهيوني..

كان القيد بانتظاري يا شهرزاد..

أخرجي يا شهرزاد من صمتك الأبدي، وتحدّثي عنّي، فأنا الحكاية..

أنا شفرة سيف مسرور المشرعة وراء الحلم، أنا القدر الآتي إذا نضب نبع خرافاتِك..

مثلما انقضوا على قبيلتك الساكنة في قلب السحاب، وانتزعوك.. قالوا أنت من خنت فراشَهُ، واستبحتِ فحولةَ سواه، وأنت أطهر من صهيل مهرة بكر.. عرّوك حتى العظم، ثم صلبوك.. أي ثمن تدفعينه عن خيانة غيرك.؟

أعادوني إلى المعتقل بعد رحلة الشفاء، قادوني مباشرة إلى مكتبه الوثير..

حسبتُه من أبناء العمومة، يحمل سمرتي، ويتحدث لغتي.. بادرني يقول من بين أسنانه:

- أنت "أبو الهيجا" إذن..؟

ضرب على صدره بخيلاء، وأطلق صوتاً كفحيح أفعى:

- يقولون إنني الأفضل..

كان يتحدث بثقة، يحاولُ أن يعصرَ حاجبيه، فيلتويان كعقرب، يضرب بيده الثقيلة على الطاولة، فيهتز شاربه

الكثّ، وينفرج عن شفتين غليظتين:

– أستطيع أن أقذفك إلى جهنّم.. هكذا.. (وقذف العصا إلى فوق).. لكنني لن أفعل قبل أن أحطّم هذا الرأس.. (وطعن بإصبعه صدغي).. وأجعل منك أمثولة..

وكأنه رتّب الأمر مسبقاً.. دخل علينا رجال غلاظ، قادوني إلى الزنزانة رقم "خمسة"..

تسع وتسعين ليلةً، يا شهرزاد.. وأنا مطويّ مثل قنباز أبي..

السقف أقرب إلى مستوى كتفيّ.. والمساحة الضيّقة التي تكاد تتسّع لغفوتي، تشاركني فيها حنفية ماء معطوبة وبالوعة صفراء، عرفت لونها من ثلاثة ثقوب في أعلى الباب الحديدي، يراقبونني منها، وأراقبهم..

يا شهرزاد.. وفتحة مربّعة في أسفله لا تتسع لأكثر من دائرة صحن الألمنيوم الطافح بالبرغل، والمغطى برغيف مقدّد، يزحف نحوي كل مساء، يحمل معه بصيص ضوء تعرفّت منه على مدى تسع وتسعون ليلة تفاصيل أصابعي المتصلّبة، وقشور قبيحة تتعربش أطرافي خلفّتها مقابض القيد القديم..

أسمع وقع خطواته، يدُقّها بقوة على الأرض، فأقفز.. أراقبه من الثقوب حتى يقترب، فأخفي رأسي.. أعرفُ أنه ينظر إلى الداخل ولا يرى شيئاً.. يضرب الباب بعصاه،

ليطمئن على وجودي حياً، فأرسل له صوتي..

- يمّا مويل الهوى يمّا موليا.. ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيّا..

تبتعدُ خطواته، فأحسُّ بنسمة انتصار تقبّل وجهي..

صدّقت يا شهرزاد كيف تعودت المكان طيلة ألف ليلة وليلة.. وذلك الأفّاق يسترسل بوعد الخاتمة، والسيفُ مسلط..

صدّقت كيف تراكمين نصرك ليلة إثر ليلة..

همس لي حارس الزنزانة:

- زيارة لك..

فجأة فُتح الباب السميك، فأرسل صريراً كثيفاً، كان الضوءُ مبهراً، فأطبقتُ جفنَيّ..

جلستُ أمامه، أكاد لا أرى منه غير بذلته المبرقعة.. وأشعرُ بطيف ابتسامة تتعلّق بوجنتيه المتوردتين، وشاربه الغزير:

- سأسمح لك بزيارة..

سكتَ قليلاً وكأنه ينتظر فرحي، ثم تابع:

- إذا صرت "آدمي" أعدك بتكرار ذلك..

بعد ثلاث عشرة سنة.. تزورني أمي..

هل تفرحين يا شهرزاد.؟

حين تسرّب اسمي بين جداول المعتقلين، ردّتني الحياةُ إليها.. نَزَفَتْ فرحَتَها على عتبات مراكز الصليب الأحمر، وضباط الأمن، وحصلت على تصريح زيارة..

تحسستُ أطرافي ورأسي، وجدتُ أنني ما زلت، ورأيت أنه ما زال أيضاً، والمعركة مفتوحة..

وقفتُ يا شهرزاد..

كنتُ مطويّاً مثل الحلم الموشّى بالقصب.. لكنني جاهدت ووقفت.. خطوت خطوتين في طريقي إلى الباب..

صوتي ينزلق فوق لساني، صلباً كأنني أبدأُ الآن..

– أمي ماتت من زمان..

أبي يربّت على كتفي ويتمتم:

– البكا للنسوان يابا..

وقبل أن أغيب وراء الباب.. ركض ورائي صوته المعبأ بالشك والدهشة:

– آمنة بنت صايل الزينات.؟

تريثت لحظة، حاولت رفع قامتي قدر ما أستطيع، وحرصت على أن يصل صوتي نقياً لا تخالطُه قطرات من عبرات، أحسست بطعمها المرّ يجرح حلقي..

– آمنة بنت صايل الزينات.. أمي.. ماتت من زمان..

* * * *

بيني وبين دارنا وبرج الحمام وغابة الخروب وقبر سعيد.. جدار، وشريط، وحقل ألغام..

على جانبيه بزّات مبرقعة، وبواريد ثقيلة تترصّدني إن تقدمت خطوة..

وأنا طليق..

قالوا.. هنا حدود وطنِك الجديد.!

كيف أفهم هذا الهراء.؟

يلوح لي قنباز أبي المقصّب من نافذة دارنا الشرقية، وصوت أمي المبحوح يزّف أغنية وهي تنفض حطّته الحريرية، وهديل الحمام يشقّ صمت الأفق..

دلّيني يا شهرزاد..

كيف أنجو من هذا الاختناق.؟

❁ ❁ ❁

ريختـر، ومقاييـس أخـرى

تـدور الغرفـة بـي. أحسـب أن السـرير يـروح ويجـيء، فأغرز وجهي في الوسادة..

تقفز أمامي كلمات سمعتها صدفة من عالم ألمعي استضافته محطة تلفزيونية ليتحدث في ندوة علمية عن الظواهر الطبيعة المختلفة، وذلك بمناسبة يوم الكسوف الكبير.. فاستفاض صاحبنا في سرد تفاصيل دقيقة وصغيرة عن المضار التي يمكن أن تصيب من ينظر ولو للحظة إلى منظر الكسوف نادر الحدوث لأكثر من مرات معدودة في حياة الإنسان..

وقد عرج بحديثه متطوعاً للتحدث عن الزلازل..

يومها أتى على ذكر معلومات كثيرة ودقيقة، وأدلى بنصائح وتعليمات أكثر في سبيل اتخاذ أسباب الحيطة والحذر، لكنه لم يستطع أن يعطي تعريفاً محدداً، ولا تفسيراً

مقبولاً، ولا معلومة واحدة يستدل منها، متى يمكن توقّع حدوث زلزال.

ولم يفته لفت انتباه المستمعين والمشاهدين الكرام إلى أن بعض الحيوانات "الطيور بشكل خاص" تشعر ولأسباب مجهولة "غريزية على الغالب" بوقوع زلزال قبيل لحظات من وقوعه، وليس أكثر، داعماً نظريته بذكر الكثير من الإشارات التي تدلل على ذلك، كالحركة المضطربة وغير المألوفة التي يفتعلها الطير وكأن مساً من الشيطان أفقده صوابه..

بينما لا يستطيع الإنسان برجاحة عقله، وتصنيفه الأرقى بين المخلوقات، التكهن بوقوع زلزال، إلا في اللحظة التي تهتزّ فيها "الثريا" المعلقة في سقف بيته..

أشار إلى الثريا الثمينة المعلقة فوقهما في الاستديو الفخم..

ثم أطلق ضحكة سخيفة..

ماذا لو أنني أنظر إلى السلك المعلّق في سقف غرفتي، يطبق آخره كحبل مشنقة على عنق مصباح قوة إشعاعه لا تزيد عن 60 شمعة.. أراقبه وهو يهتزّ كذيل إبليس.!

لكنني صممت أن لا أفعل..

أطبقت بقوة أكثر على جفنيّ، وغرزت وجهي في

الوسادة..

زلـزال قـوي سـجل سـتة درجـات علـى مقيـاس ريختـر ضرب ساحل المكسيك..

زلزال آخر سجل درجة أعلـى "لم يعلن عنها لأسباب سياحية على الغالب" ضرب وسط تركيا، وأتى على عشرات القرى..

الضحايا بالمئات، والخسائر تقدّر بملايين الدولارات..

زلـزال فـي جزيـرة يابانيـة، سـجل سـبع درجـات علـى مقياس ريختر.. الخسائر ماديّة فقط..

حتى الطبيعة تحارب الفقراء.!

فأنا لم أسمع يوماً أن فيضـاناً ابتلـع قصراً لملك، أو أن حمم أحد البراكين التهمت صالة اجتماعات مجلس رسميّ، ولا صـاعقة ضـربت هوائي إذاعـة تبث علـى مـدار السـاعة أخبار الإنجازات الخرافية التي حقّقها هذا الزعيم أو ذاك..

لـم أسـمع أن غضـب الطبيعـة بأشكاله المختلفـة طـال أغنياء أثروا من رشوة أو سرقة، ولم أسمع أنـه قضـى علـى أحد من المخططين الاستراتيجيين لدمار الشعوب، ولا علـى أحد من اللاعبين فـي ملاعب السياسـة وتصـاريفها العجيبـة والخبيثة..

ترى هل يملكون تلك الحصانة.؟

الآن سيحتدم السباق بين ناقلي الأخبار، ومراسلي وكالات الأنباء العالمية، وملوك الإعلام، أصحاب المحطات التلفزيونية الفضائية واسعة الانتشار في العالم..

يرسلون رجالهم على أجنحة السرعة، يحمّلونهم الكاميرات المتطوّرة، والفتيات الجميلات المغناجات، مع ميكروفوناتهم، وأفلام الدعايات، يتقاطرون خفافاً وثقالاً إلى موقع الحدث الطازج، سعياً محموماً لتحقيق سبق إعلامي، يبثّونه بعد لحظات على الشاشات العالمية بالصوت والصورة..

إشارة تبرز على زاوية الشاشة الفضيّة تقول "خبر عاجل" ويبدأ المذيع الوسيم بالإعلان عن حدوث هزّة أرضية اجتاحت بقعة أرض فقيرة من أرض الله الواسعة، سجلت......... درجة على مقياس ريختر.!

بعد لحظات ستتهاوى الجدران علينا، ويسقط السقف فوقنا، وتتناثر أغراض البيت وحجارته تحمل مزقنا ولحمنا..

ماذا أفعل عندما تأتي زوجتي من الغرفة المجاورة.؟

تحمل أطفالها الثلاثة والرعب ينضح من أطرافها، ويقفز الفزع مختلطاً على لسانها مع فيض كلمات متلعثمة ترجوني أن أفعل شيئاً.!

قبل قليل سمعت نشرة الأخبار..

ورأيت حدائق ومنتزهات، وقصور ريفية، وقاعات

وردهات..

رأيت عن بعد وكأن عدسات كاميرات المصورين تسرق رؤوسهم من بين فروع الأشجار الكثيفة.. وجوه طافحة بالابتسام، وسواعد تشتدّ على بعضها، وبروتوكولات، ومجاملات..

تساءلت والدهشة تكاد تعقد لساني..

ترى ماذا يفعلون، وعلى أي أمر يتفاوضون، وبلسان من يتحدثون، ومن يمثّلون.؟

لماذا لم يسألني أحد.؟

وأنا في ركني هنا، على بعد شاسع، أترقّب زلزالاً يشحنني إلى عالم أفضل أو أسوأ أنتظره الآن، وليس لي من أمري شيئاً..

ألا يستطيع هذا الإعلام المعجز، أن يشرح لي حقيقة ما يجري.؟

هذا القادر بوسائله المدهشة على نبش الدودة من قلب الحجر الصلد، والحريص على مطاردة راقصة جميلة ورخيصة، يحصي عليها حركاتها وسكناتها، سهراتها وعشّاقها، آخر مايوه مثير تلبسه، وأحدث صرعات الملابس الفاضحة التي تبتكرها أرقى صالونات "الفضيلة" في العالم..

هذا الإعلام لماذا يحرص على أن يقول ما يجعلني

أعيش هموماً جديدة على الدوام ليست لها علاقة بهمّي أو بمشكلتي الأولى وإفرازاتها..

أبو سيّاف يحتجز رهائن.!

طائرات أمريكية وبريطانية تقصف راداراً عراقياً تجرأ ورصد تحرّكها في سمائه الخاصّة.!

متطرفون إسلاميون يذبحون عائلة من سبعة أشخاص في ريف الجزائر.!

فصيل سوداني ديمقراطي يطالب بالانفصال عن السودان.!

ليبيا تدعو لإقامة ولايات متحّدة إفريقية.!

وفود رفيعة المستوى تواصل لليوم العاشر اجتماعاتها المكثّفة تحت مشعل الحريّة.!

قلت.. النوم أفضل.!

حملت الوسادة رأسي، وبدأت فيضانات كاسحة تهزّني شيئاً فشيئاً..

كأن الأرض تدور بي، كأن الزلزال قادم..

فجأة قفزت من ذاكرتي صورة المساعد "أبو سرّي" رئيس المخفر السابق في حيّنا، ذلك الرجل القصير السمين دائم الابتسام، الذي ابتدع أسلوباً عجيباً لفضّ النزاعات المستفحلة والعميقة بين أفراد عائلات المنطقة التي تقع

تحت سلطان مخفره.

فكلما حصلت مشاجرة بين طرف وآخر يرسل دورياته للقبض على رؤوس عائلات المتخاصمين، وهم ليسوا بمتخاصمين بالأصل..

يزجّهم في النظارة، ولن يطلق سراحهم حتى يعلنوا المصالحة وتقبيل الشوارب فيما بينهم، بينما تبقى الخلافات والمشاجرات مستمرّة على أشدّها بين المتشاجرين أنفسهم..

وهكذا في كل مرة..

ما كان يقع في دائرة استغرابي، أن سلوكه ذاك كان على الدوام يلقى الرضا والاستحسان عند رؤسائه، وعند أرباب العائلات أنفسهم..!

تركت زوجتي قبل قليل تتابع الحلقة الـ 120 من مسلسل تلفزيوني مكسيكي فاقت أحداثه العجائبية ما تعودنا على متابعته في المسلسلات العربية والهندية..

يبدو أنها موجة إعلامية عالمية فيّاضة تجتاح عالم الفقراء، وتحملهم في لحظات إلى أحلام حريرية، يعيشون دقائقها على أمل انتظار نقلة سحريّة واسعة تحملهم إليها ورقة يانصيب رابحة..

أو حصول معجزة يتحسسونها حيّة يمكن أن تقفز في ثانية مع سير أحداث المسلسل، وتنبسط بألقها بين أيديهم..

يستسلمون في متابعة الأحداث السلسة والشيّقة إلى

متعة انتظار مفاجآت لقدر يأتي فجأة بأب غني كان غائباً، أو بثروة من أم أنجبت حراماً..

كأنني أسمع طقطقة السقف، يكاد ينقضّ هو الآخر، والغرفة تدور بي..

ماذا أفعل.؟

– أنقذ الأطفال أولاً.! أحملهم وأخرج بهم مع زوجتي، أبحث لهم عن مكان أمين بعيد عن العمران..

بعد لحظة أبعدت الفكرة عن مخيلتي..

إن أقرب مكان يمكن أن أقصده سيستغرقني أكثر من عشر دقائق، لن تنقذني وأسرتي بأي حال من إطباق جدران البيوت علينا، شوارع الحي الذي أقيم فيه ضيقة، وتكاد أسقف البيوت أن تتشابك..

هؤلاء الفقراء النهمون، يبلغ بهم الأمر إلى استغلال الشبر من الأرض واستعماله لبناء خشّة، غالباً ما تقوم في ظلام ليل، وعلى عجل، فالمنطقة كلها تعتبر منطقة مخالفات لخرائط التنظيم، ورسومات تجميل المدينة، وتعليمات البلدية، لتجدها مع تباشير الصباح مأهولة بالسكان، تنقذهم إلى حين من قرارات الهدم الفوري، لتسقط وحدها ذات يوم..

يهتزّ السرير تحتي، فأتشبث بالجدار..

أذكر عندما بدأنا في بناء البيت كيف اضطر العمال

لاستخدام الديناميت لحفر كتلة الأساس الصخرية..

وكيف كان والدي رحمه الله يطلب من العمّال إضافة كيس من الإسمنت زيادة فوق كل جبلة، وإضافة قضيب من الحديد بين كل شبكة..

كان الإسمنت والحديد برخص التراب، وكان والدي يردد في كل مرة.. سأجعله قلعة..

ترى هل تستطيع هذه الجدران الصخرية الصمود في وجه القادم العاتي.؟

يوم استقدمت أحد العمآل لتبديل خط سير قصير لأشرطة الكهرباء المهترئة داخل الجدار، لعن الساعة التي جاءت به للحفر في كتلة من الحديد، "كما قال وهو ينظر بحسرة إلى إزميله الرابع المكسور، ويلقّط سيل العرق الناضح من كل جزء فيه.."

– لو أعطيتني أضعاف الأجرة التي اتفقنا عليها سأبقى ألعن حظي السيء الذي قادني إليك..

قال بنزق وهو يتقاضى أجرته..

أعتقد أن آمن مكان ألجأ إليه مع أسرتي هو هذا الركن بالذات، فلو سقط السقف ستبقى الأعمدة العتيدة والزوايا المتينة التي تحملها.

مساحة ضيقة جداً لكنها تكفينا وتؤمن لنا حداً من الحماية..

- ترى هل نخسر كل شيء.؟

تذكّرت في تلك اللحظة أشياء كثيرة طالما حرصت على الاحتفاظ بها..

إلى جانب ما استطعت توفيره من مال أبيض للأيام السوداء.. العجيب أن الأيام السوداء التي نحرص كل عمرنا على الاستعداد لها، تأخذ في طريق قدومها كل شيء نوفّره لها..

- على كل الأحوال ما قيمة المال عند وقوع المصيبة..

لن أفكر في ذلك الآن..

عندما اندلعت حرب حزيران، واستقبلنا ساعاتها الأولى بالبشر، قلت مع من قالوا أننا نشعل السيجارة هنا، وقبل أن تنتهي نكون على شاطئ بحر يافا..

بعد اليوم الأول بدأت الناس تحزم أغراضها القليلة للانطلاق بأسرع ما يمكن إلى الشرق..

قال والدي يومها ألا يترك البيت أحد..

وكعادته في فلسفة الأمور أتحفنا بمحاضرة طويلة سحب فيها تجربة رحيله الأول، وكيف حملنا مثل الفراخ، وقفز بنا إلى بر السلامة..

ثم بدأ مسيرة الموت البطيء..

قال:

- البقاء والصمود في المكان له احتمالان لا ثالث لهما، إما الموت قتلاً تحت الأنقاض، وإما النجاة..

أما الموت فهو حالة قدرية لا يستطيع أحد الوقوف في وجهها، هكذا تقول الرسالات السماوية..

وأما النجاة رغم الخسائر المحتملة فتبقيك إلى جانب أشيائك، تعيد بناءها يوماً بعد يوم..

سأقول أنا أيضاً، أن لا أحد يترك البيت..

إذا خرجنا أمامنا احتمالان أيضاً، إما الموت وإما النجاة، السؤال الذي يجب أن ندركه..

ماذا يمكن أن نفعل بعد النجاة.؟

هذا الركن الحصين يحمينا..

لن يغادر أحد البيت..

حاولت أن استجمع شجاعتي وأنهض قليلاً لأجمع قدر ما أستطيع من الأغراض التي أحرص على الاحتفاظ بها، لكنني تراجعت في اللحظة الأخيرة، خفت أن يسقط السقف فوقي..

يبدو أن زوجتي لم تشعر حتى الآن بالخطر الذي يدهمنا..

ليتها لا تشعر.!

ممتع أن يموت الإنسان هكذا فجأة ولا يعرف كيف أتاه الموت..

كثيراً ما كان جدّي يردد أن الموت ليس سهلاً كما يتصور لكم، بل إنه يتطلب هزّ الأكتاف.!

في العام 1937 وبينما كانت طائرات الانتداب البريطاني تستعرض قوتها في سماء عكا أفلت "قازان" سهوا أو عن قصد من إحداها وسقط تماماً فوق بيت جدّي..

وجدّي يرحمه الله كان رجلاً من فحول الرجال، صالحاً وتقيّاً وقائماً بواجباته الدينية والدنيوية على خير ما يرام..

صلى العصر، واستلقى عل سريره المرتفع ذي القوائم النحاسية، بعد لحظات أخذته القيلولة..

انفجر القازان المرعب، وسقط البيت..

المعجزة التي حصلت أن قوّة الانفجار الهائلة قلبت الخزانة الثقيلة، ووضعتها تماماً فوق قوائم السرير، كأنها شكلّت بوضعها الجديد غطاءً متيناً أمّن الحماية الكاملة لما تحته، فانهال الركام فوقها، ونجا جدّي المستلقي بطمأنينة على فراشه..

أخرجوه بلا خدش واحد من تحت الأنقاض، لكن قوة الانفجار أفقدته غشاء السمع في إحدى أذنيه..

زوجته الرابعة التي كانت بعيدة عن البيت في ذلك الوقت، وسمعت صوت الانفجار، وشاهدت بيتها المنهار عن آخره فوق جدّي.. فقدت عقلها..

وماتت بعد سنوات منسية داخل غرفة حقيرة في مستشفى للأمراض العقلية..

ومات جدّي هو الآخر بعد أن بلغ من العمر عتيا..

مات خارج بلده وخارج بيته الذي أعاد بناءه بعد الغارة العفويّة، وبدا في حلة أجمل وأبهى..

ألف مرة سمعته يردد بعد كل صلاة، لو أنه مات ساعة الانفجار..

هل أستطيع أن أضمن بأن الموت سيأتيني من ها هنا.؟

هل أستطيع أن أستمرّ في الحلم بالنجاة..

مات والدي وهو يوصينا أن ننقل رفاته إلى مقبرة النبي صالح في عكا متى حانت عودتنا إلى هناك..

يومها قال:

– لأننا غادرنا في المرة الأولى علينا أن نتقن فن الانتظار..

يطلبون منا الآن أن نتقن فن النسيان..

الغرفة تميد تحت قوائم سريري الهشّة، ما زلت أرفض النظر إلى الشريط الذي يحمل المصباح، أخاف أن أراقبه وهو يهتزّ..

بدأ ذلك الارتجاج يدخل رأسي، صوت يقتحم سمعي، أصوات كثيرة آتية من كل الاتجاهات..

لماذا لا تصرخ.؟

لحظتها ربما صرخت، لم أفهم ماذا قلت في صرختي، كل ما أذكره أنني صرخت..

دخلت زوجتي فزعة، أحسست بيدها تمسك يدي، سمعت كلماتها بوضوح وهي تقول:

– مرة أخرى تترك السرير وتنام على الأرض في ذات الركن.؟ الأمر لم يعد يحتمل السكوت عنه، حالتك تزداد سوءاً يوماً بعد يوم.. غداً نذهب إلى طبيب مختص لمعالجة أمر أذنيك..

❁ ❁ ❁

الطابق السابع.!

راحتي مستكينة بين كفيها مثل طائر يهدأ من رحلة سفر طويلة..

– لو أنني التقيتها قبل ربع قرن..

حدّثت نفسي، فجاءني همسها كحفيف أوراق الشجر..

– ومن أدراك أن ذلك يرضيني..

واندلقت الكلمات من بين شفتيها مثل انسفاح قارورة عطر..

قفز قلبي من صدري، وركض خلفها خطوتين ثم عاد يسخر مني.. تلحقه كلماتها العذبة:

– مكتبي أول غرفة إلى يسار الدهليز العريض.. أتطلّع لتزورني في أي وقت..

لم أقو على الصمود أكثر وأنا أحدّق بجنة عينيها الخضراوين المطلتين بذبول من بين خصلات شعرها المنسكبة بفوضى على جبينها وأطراف وجهها، لتستقر باطمئنان على كتفيها..

هل كانت تغمز إلى موعد وهي تطلق مع كلماتها المقتضبة ابتسامة اشتعلت مثل سهم ناريّ أذهلني وميضه الخاطف لحظة، ثم اختفى.؟

أفلتت يدي الساخنة، انفلتت.. ومضت..

تراءت لي ثنيات جسدها تتلوّى كحيّة استوائية داخل قماش بنطالها البحري، تنزلق موجة إثر موجة لتصل بسكون إلى شاطئ رملي، تقبّله، تلمسه برقّة، ثم تنفضّ عنه، تنسحب برفق كما تنسحب يدي المعروقة من راحتيها..

تجاهلت المصعد، وأخذني الدرج اللولبي..

ما الفارق بيني وبين الأستاذ "حاتم" مسؤول الصفحة الثقافية.؟

ها أنا ذا الآن أجترّ خيبتي، كما يجترّ بذاءته..

تقتحمني رغبات مراهقة، تقتلعني من وقاري، وتحرضني على سلوك درب خطيئة كنت أرفضها بأشكالها وصورها المختلفة، وكتبت عنها الكثير، وأعملت فيها فلسفتي ونقدي..

حاربتها قديماً وشرحّتها على مئات من الصفحات الورقية، اعتلت أكوامها المكدّسة في أدراج مكتبي صفرة باهتة، وانبعثت منها رائحة رطوبة فجّة..

أضحت مشروعة، في لحظة حمراء التهبت أمام جموحي وراء لحظة كنت أحسبها إن قفزت من صدر غيري.. سخيفة، بل ومزرية..

هل تراني أقترب من ثمني.؟

أليس لكل رجل ثمن.؟

قول لأحد الحكماء العظماء، أو أحد المخمورين، لم أعد أذكر.!

ألهث وراء جمال صاعق..

أتجاوز سنوات عمري الكثيرة.. أشعر أن لهفة انشداد مستعرة تعيدني إلى الوراء سنوات وسنوات، وتحط بي على شفا رغبة متوقّدة..

- البنات يكبرن بسرعة لا تصدق..

جملة ردّدتها جدّتي في مناسبات كثيرة..

فهل أصدّق أن من تقف أمامي الآن هي تلك الفتاة النحيلة ابنة صديق لي من بعيد..

عرفتها عندما كانت صغيرة، وبدأت أراقبها في زياراتي القليلة تكبر أكثر وأكثر.. أذكر ضفائرها الشقراء، مجدولة

في شريطة حمراء.. ترتدي مريلة المدرسة، وكلسات بيضاء طويلة، وتحمل بين يديها محفظة جلدية سوداء عليها صور كثيرة لمطربين وممثلين ورياضيين شباب..

دخلت علينا يوم عرفتها لأول مرة، فجأة، وأطلقت من بين ثنيات لهاثها طلباً لا تشفعه حجّة بحاجتها إلى عشرة ليرات.. تناولتها بسرعة، وانطلقت تقفز فتنحسر مريلتها الزرقاء عن ساقين كقوائم الماعز..

تذكّرتني ولم أتذكّرها، قالت أنها لا تنسى أشكال وجوه أصدقاء أبيها..

واعتلت وجنتاها حمرة شديدة..

* * * * *

جمعتني مقاعد الدراسة أنا وحاتم أربع سنوات، هي مرحلة دراستنا الإعدادية، في مدرسة فقيرة، تحتل بيتاً من بيوت دمشق القديمة في حي شعبي، مستقرّة في نهاية حارة ليس لها منفذ، ولا تدخلها غير طنابر موزعي المازوت، وحمير الباعة الجوّالين..

كنا نتنافس على الفوز بجائزة مدرّس اللغة العربية، كتاب أو قلم أو دفتر، يقدمّها من ماله الخاص لمن يتفوّق في كتابة موضوع الإنشاء العربي، وكنت أحصدها جميعاً..

يدخل إلى الصف ويكتب على اللوح جملة واحدة.. الموضوع: أكتب ما تشاء..

بعد ذلك أصبحت كاتباً وصحفيّاً أكتب ما يشاؤون..

وأخذني الأمر إلى صيرورة قدرية، فقد أصبحت الكتابة وحدها باب رزقي الضيّق.. وأضحى التسكع بين مكاتب الصحف والمجلاّت ديدني، واسترضاء الممسكين بقدر الثقافة والناشرين هاجسي..

صدفة جمعتني به في مقهى شعبي أرتاده حين تدعوني الرغبة للاقتراب من هموم الناس، أراقبهم كيف يطوون همومهم وفقرهم تحت حجارة الطاولات وبين أوراق اللعب الملونة، ويعلنون لا مبالاتهم..

تعانقنا بحرارة، وتبادلنا الكلام الذي لا ينتهي عن الذكريات وأيام الصبا..

قال وهو ينفض كتفيه زهوّاً:

إنه المسؤول عن الصفحة الثقافية في مجلّة أسبوعية قطاع عام.. وأردف من بين أسنانه:

- أعتقد أنك ما زلت تكتب.؟

- إنها مهنتي..

أجبت وأنا أدفع بين كلماتي لهفتي بأن يعرض علي أنا صديقه القديم النشر في مجلّته.. وقد حصل ما توقعته..

في صباح اليوم التالي كنت أقف على باب مكتبه.. أحمل تحت إبطي مقالاً معقولاً رصيناً حرصت على كتابته

ومراجعته باهتمام..

مكتب وثير، وسجادّة خضراء، طقم كراسي خمس نجوم، وثلاثة أجهزة هاتف وكمبيوتر وفاكس وتلكس، ومكيّف، وفنجان قهوة مرّة احتسيته قبل أن أجلس..

ذكرّني وجه مدير مكتبه النحيل وذقنه العريضة، وشاربه الكثّ بأبي كايد آذن مدرستنا القديمة، وكيف استطاع صديقي حاتم منذ ذلك الزمن البعيد شراءه بثمن بخس، عشرة قروش فقط، يتناسى في سبيلها أمر باب المدرسة، ويتغاضى عن خروجه من حرمها إذا اشترى من بسطته شطيرة فلافل.. ليس في رغيفها الممسوخ غير الفلافل، والبقدونس والملح..

ولولا يقيني أن "أبا كايد" مات منذ زمن لقلت أنه هو..

تجاهلت الأمر، وعبرت إلى طموحي..

بعد أيام قليلة، وجدت مقالي على موقع ساطع في الصفحة الثقافية، متوّجاً باسمي الكامل، فغمرتني سعادة حقيقية.. وحرضتني فرصة النشر تلك على مضاعفة جهودي في الكتابة..

شهران، ثلاثة، ضلّت كتاباتي طريقها ولم ينشر منها حرف واحد، وكلما راجعت في الأمر تقابلني أعذار شتى..

فقدت المادّة، أو أن المجلة نشرت مقالاً مماثلاً، أو أن القارئ المقرر لصلاحية ما أكتب ويكتبون تأخر في بيان

موافقته القدرية على النصّ..

أكاد أنفجر من الغيظ وأنا أبحث في كل عدد جديد يصدر عن اسمي ولا أجده، ويزداد غيظي كلما قرأت اسم "مختار. م" .. الذي لا يخلو عدد من مقالة يكتبها.! وأحسّ بفيض من الحسد والحسرة في آن، أتساءل في سرّي..

من ذلك الشخص الألمعي الذي يمتلك هذه الغزارة، ويخترق اسمه وحظّه ذلك الجدار الذي لم أستطع التسلق عليه قيد أنملة..

* * * * *

تحملني شجرة سنديان، أقبض بيدي الشابّة على فرع طري ولد الآن، فيرتفع بي عالياً، يزفّني إلى الطابق السابع ويحطّ بي على رواق شرفة، فأرى طيفها من وراء الزجاج..

بيدها مروحة كسولة تعبث نسيماتها برفق بين الفينة والفينة بجدائلها، فتنفضها بخيلاء..

تفرد شعرها الخروبي على كتفيها العاريين إلا من باقة ياسمين نزفت على جلدتها، فأزهرت..

تعبث أصابعها الممسكة بقلم أخضر بأوراق كثيرة مفرودة بفوضى على مكتب أنيق تجلس خلفه..

تنتبه إلى وجودي فتقف.!

يا إلهي..

باسقة مثل سنديانة تعيش في ذاكرتي، تهطل فوقي سحابات طلّ ، تقف شامخة في ركن ساحة جعلناها ملعباً "للرنّة"، أتظلّل تحت أغصانها الوارفة في ظهيرة يوم قائظ.. تناديني أمي وهي تجدّ الخطى، تحمل عروسة أشّم عن بعد رائحة زعتر وزيت تنضح منها.. فتهطل نسيمات باردة أفتح لها صدري، وأستكين..

كأنها تفعل كذلك الآن، تختصر ابتسامتها تلك السنوات الكثيرة التي تمتدّ بيننا.. أكاد أرسل يدي، وأضمّها إلى صدري.. أكاد أنسى خطوط شيبي، وآلام مفاصلي، وغزوات المرض المتعاقبة على صدري حيناً وعلى أحشائي حيناً آخر.. كأنني فتى العشرين، ينبض قلبي وجيباً متلاحقاً، وتلتمع عيناي كلما ومضت ثنية من تفاصيل جسدها الرائع..

هل أحببتها حقّاً.؟

أمسَكت يدي، قالت أنني ضالّتها.. الناضجون فقط يقدّرون قيمة الأشياء، ويجمعون في شخصهم الواحد مزايا نادرة.. ثم قادتني إلى نافذة غرفتها.. تدعوني لأكتشف المنظر..

صحون مجوّفة، تحتلّ أسطحة البيوت والبنايات، والدكاكين الخربة، والإسطبلات، كأنها أكف قبيلة من المتسولين، تمتّد صفوفاً متراصّة، على نسق واحد، وإلى

جهة واحدة، تستجدي المعرفة من قمر فولاذي معلّق في مكان ما، يعلن بالصورة والصوت أنه قدر العالم الجديد.

نظرت إليها ببلاهة، فابتسمت، وكزّت على أسنانها فانطلقت من عينيها شهب ملوّنة..

* * * * *

كنت على وشك ركوب المصعد نازلاً من الطابق السابع بعد مقابلة فاشلة مع صديقي حاتم مسؤول الصفحة الثقافية عندما تقابلنا. نظرت في وجهي نظرة طويلة، ثم أمسكت يدي:

– الأستاذ صلاح.؟

وقبل أن أجد فرصة لتأكيد ظنونها تابعت:

– لا أنسى أسماء ولا وجوه أصدقاء والدي رحمه الله..

شدّت على يدي، وأطلقت ضحكة رقيقة..

– هل تعلم أنني أتابع كتاباتك الرائعة.!

نظرت إلى أصابعي بدلال، وهمست:

– يا لهذه الأصابع الرقيقة.؟

وأرسلت من خضرة عينيها بريقاً أصاب مقتلاً في مجموعة مثل وقيم سامية عششت على مسار عمر طويل في نسيجي، عاشت في ممارساتي الصغيرة والكبيرة، رسمتها مثالية أسعى إليها..

أراها الآن على قدر من التفاهة..

كيف يمضي العمر رخيصاً فقيراً جافّاً ولا تأتيه فرصة مثل هذه، وعندما تأتي بهذا الدفق والعنفوان، ممتطية الأمواج، تكون السفينة قبالة الشاطئ الأخير..

هل أحببتها حقاً.؟

ويأخذني السؤال إلى وديان شاسعة واسعة تلجم بوحي، لا أجرؤ حتى إلى التحدث مع نفسي..

هل يمكن أن نلتقي، في شقّة بعيدة عن عيون الفضوليين.؟

أم هل يجمعنا مكان عام.؟ أبحث عنه في أقصى مكان يرتاده الناس، وأختار مقعداً في ركن قصي، أضع وجهي قبالة الفراغ، أو قبالة جذع شجرة ثخين، وتنتفض فرائصي كلما رفّ فوقنا طائر، أو عبرت من جانبنا ذبابة..

أشعر أنني أستبيح ما لا يحق لي، ورغم ذلك يأخذني غروري إلى نهاية الشوط. أسخر من قصائد العشق، وتضحكني قصص الهالكين في سبيله..

هي في متناول يدي، أنا الراشد، المجرّب.. حنكتني الحياة، ووضعت أمامي وتحت أصابعي فرصة لتجربة فحولتي أمام جسد فائر، وإرضاء غروري وذلك الشيطان النهم الذي يستطيع إن تمرّد وانطلق، تدمير كل شيء..

هل يقولون حبيبتي.؟ أم ابنتي.؟ يتغامزون،

ويتهامسون.! تفرقع ضحكاتهم وهم يدركون أن هذا الهيكل المطحون، أصغر من صخب أنوثتها الصارخ..

هل أضمّها إلى صدري.؟ ألمس كتفيها وعنقها الرخامي براحتي اليابستين.؟

– لو أنني التقيتك قبل ربع قرن..؟

تمسح على كفيّ برفق، وتدعوني خضرة عينيها لافتراش الحلم، تهمس:

– الآن أفضل.. نشكّل فريقاً استثنائياً، نؤسس حباً من طراز فريد، لا تكبّله قيود، أعطيك وتعطيني حتى نصبح في العطاء سواء..

يا إلهي..

أنظر إلى نفسي ولا أصدّق..

هل أحبتّني حقاً.؟

وكيف تفعل وتردم تلك المساحة الأزلية بين الربيع والخريف.. هل تكفي براعة الكلمات التي يحملها شيطان الشعر إلى شفاه الأدباء للإيقاع بمثلها.؟

وهل تقتصر الحياة على كلمات أكثرها ترّهات شعراء، يقولون ما لا يفعلون، ويعلنون غير ما يخفون.؟

– أتذكر تلك الصحون المتسوّلة الجوفاء، هي دوائر تراها مكتملة أليس كذلك.؟ وتدرك دون أن تحزن أن قدر

وجودها ونفعها مرتهن بكتلة فولاذية صمّاء ليس لها قلب، تقتل ببرود إن هي أرادت، وليس لإرادتها منازع..

اقتربت من وجهي، فحملتني موجات أنفاسها إلى ساحة بعيدة، رأيت صبيّاً يركض في أرجائها، يأخذه الجهد والتعب فيستلقي تحت سنديانة تهطل عليه نسيمات رطبة، تحمل مع ريحها روائح الخبز والزعتر.. فيستكين..

هَمَسَت:

– تعلّمت كيف أعثر على مفاتيح الأقفال وأجعلها طيّعة بين أصابعي. وكيف أخترق عصابة الأستاذ حاتم ومدير مكتبه.. نشكل فريقاً.. فتنتقل كتاباتك الرائعة المركونة على مكتبي "للحفظ" إلى صدر الصفحة الأولى..

دخلت حارة ضيّقة..

كان "أبو كايد" يقف بابتسامته الصفراء يمسك مقبض باب عتيق، ويحمل أرغفة ممسوخة، يحثّني على الاقتراب منه، أسنانه المتباعدة تطل من فرجة قبيحة تحت شاربه الكّث، كأنها فك مفترس يكاد يلتهم أصابعي..

في صبيحة اليوم التالي، صدر العدد الأسبوعي من المجلة قطاع عام.. رأيت عنواناً عريضاً لإحدى كتاباتي على الصفحة الثقافية، يزيّنه بخط واضح اسم "مختار. م"

كنت على وشك طلب المصعد ليحملني إلى الطابق السابع، رأيت صورتي مطبوعة على زجاج الباب الصقيل،

تأملتها فرأيت فيها شخصاً آخر يسخر مني.. فابتسمت..

حملتني خطواتي الخائبة إلى خارج البناء..

رفعت رأسي فلم أر غير أشرطة متشابكة تتدلى بفوضى من قيعان الصحون المجوّفة، وتدخل في رؤوس الناس..

تغلق أسلاكها المتقاطعة تلك الفرجة الضيّقة التي يمكنني من خلالها وحدها رؤية شرفة غرفة ما زالت تحتل ركناً في الطابق السابع..

تفرّست في قامات الرجال والنساء ووجوههم، رأيتهم يحملون شطائر "أبو كايد".. ويشيرون بأصابعهم الغليظة نحوي ويتهامسون..

فضحكت ملء شدقيّ..

ثم كتمت صرخة صاعقة كادت تفلت مني..

❁ ❁ ❁

من سرق الكيس الأصفر

تستقبلني كل صباح ابتسامات لئيمة مرسومة بنفاق بالغ على وجوه الرجال المحنّطين أمام دكاكينهم الضيّقة والمكتظّة ببضائع شتى.. برّاقة لامعة.. ومزيّفة..

حتى أنهم يسرقون مساحة من الشارع الضيق بالأصل، يفرشون معروضاتهم الأثرية، الفضيّة والمذهّبة والملوّنة بألوان زاهية ويتزاحمون ويتشاجرون..

في ذلك السوق الضيق، الذي رصفت أرضيته بحجارة سوداء مربّعة ومستطيلة بتناسق جميل. تتراكم الدكاكين الضيقة والمقاهي والمطاعم الشعبية، وباعة العصير والمرطبات والكعك والجرابات..

تختلط أصواتهم النابحة مع ضجيج أنغام رديئة تلفظها أشرطة الكاسيت في وجوه الناس سكّان البيوت القديمة المهلهلة، والعابرين من خلال أزقّته المتشابكة والمنخفضة

إلى أكثر أحياء المدينة المحيطة..

وبين أفواج متتالية من السائحين الأجانب بجنسياتهم المختلفة والزائرين القاصدين التبرّك بحجارة مقامات وقبور الأولياء والصالحين من السلف..

قصدت عندما وصلت إلى دكاني الضيق أيضاً أن أتجاهل النظر إلى صاحب مطعم (الشاورما) القائم قبالة محلي تماماً..

تراه يجلس على كرسي منخفض وراء طاولة صغيرة تحمل مع ما تحمل صندوق المال الآلي.

يطل برأسه الأصلع يراقب بفضول كل شيء يتحرك أمامه..

دخلت متجري النظيف فبادرني "نزار" الشاب النحيل الذي يعمل معي، بجملته المعهودة..

- لا شيء جديد.!

أضاف هذه المرة بسخرية:

- جاء ياسر وسأل عن دليل هاتف.. قال أنه فقد كيساً فيه ألف ليرة..؟

لم أعر الأمر اهتماماً، كنت أعلم أن رقم الألف عند ياسر هو نهاية الأرقام التي يدركها، وسقف المعرفة المدوّن في تلافيف عقله..

غالباً ما يقول حصلت على ألف سيجارة، أو ألف علبة فارغة.

كأنـه ينشـد تهويلاً لأمـر جلـل ينسـجه خيالـه المعتـوه، وكنت أكتم سخريتي..

ألاطفه وأجلس معه، أدعوه وأشاركه شرب كأس من الشاي المحلى الذي يحبّه، أدخل عالم خياله الغريب والساخر، أحاول قدر جهدي استخلاص الرؤى التي لا يدركها سواه..

تساءلتُ.. كيف نقيس جدارة العقل.؟

من يملك الحق في الفصل بين عاقل ومخبول.؟

بل ما هي العقلانية أصلاً.؟

هل تكون الصورة المطلقة التي رسمناها لعقولنا وأوصلتنا بغرور مطلق إلى سحق الآخر بمسميات أطلقناها وبمعايير وضعناها.؟

كان ياسر محور تساؤلي الدائم، أقف مشدوهاً أمام حركاته وتصرفاته المضحكة والتي يعبّر من خلالها عن موقف يعيشه أو يحسّه، أو حالة لا يملك القدرة على التعبير عنها بشكل آخر، وأحياناً أمام آراء يطرحها بسلاسة وبساطة رأيت فيها كمال العقلانية والسداد والحكمة..

عرفته منذ زمن، وعرفت الكثير عن ظروف حياته، قد يكون أهم مفصل فيها يوم قفزت به الحياة إلى شكل مثالية

نـادرة، فكرّس نفسه وقدراتـه بتفان لـيس لـه مثيل فـي رعايـة زوجة وأبناء شقيقه الوحيد الذي مات فجأة..

كان مجذوباً، هذه حقيقة ولكن من نوع فريد..

اسـتطاع أن يـتعلّم بسـرعة مذهلـة كيـف ينتـزع قوتـه ورزقـه، يجمـع قـدر مـا يسـتطيع مـن علـب "الكـولا" الفارغـة والعبـوات البلاسـتيكية والنـايلون والمعـادن والأخشـاب، وأي شيء يقع تحت يديه، فلكل شيء ثمن..

واستطاع أن يتعرّف إلى أصحاب الجحور التي تشتري وتبيع هذه النفايات..

تعلّـم سـريعاً كيـف يسـوق مـا يلقّطـه مـن رزق بوسـائل شتى، إلى الأسرة الكبيرة، يطعم الأفواه القاصرة التـي تنتظره دون سواه ليقيمها علـى الحياة، ولـن يتذوّق لقمـة واحدة قبل أن يزجي لهم الكفاية..

وتعلّم فوق ذلك كلـه كيف يهرب من دوريات مكافحـة التسول، والتشرّد..

تعلّم كيف يقبل الحياة ويختصر مسافات السؤال عن قلة الحظ وقلة فهم الآخرين لنا إلى آخر القائمة التي نتعذّب في أتونها كل لحظة لأننا.. عقلاء..

وهكذا مضـى بـه العمر كائنـاً وسط دوّامـة تـدور يومـاً بعد يوم حتـى تشكّل فـي قلب الصورة مكمّلاً لهيكل المكان المـزدحم، إلـى جانـب مجموعـة ليسـت قليلـة مـن المعـوقين

عقلياً وجسدياً تزيد عدداً لسبب ما في مثل هذه الأحياء المغيّبة..

كان دائم الابتسام، يمتلك بين جوانحه روحاً حلوة ووديعة، يطرب للكلمة الرائقة ويحس بالدعابة ويستسيغها..

يبدو أليفاً محبّباً ودوداً وهذه الصفات قرّبته إلى قلوب الناس الذين عاشروه وعرفوه، وأسهمت إلى حدّ كبير في ترسيخ صداقة حميمة بينه وبين عبد القادر صاحب الشاحنة الصغيرة ذات اللون الأخضر الداكن والعجلات الثلاث والذي يقيم أيضاً في بيت إلى جانب بيت ياسر في الزقاق ذاته..

ولعل الاستثناء الوحيد في علاقاته الطيبة مع الآخرين، تلك العلاقة الموتورة بينه وبين (أبو راشد) بائع الشاورما الذي ضربه عندما تجرأ والتقط علبة كولا فارغة من أمام دكانه..

يومها ابتلع ياسر غضبه، وأخرج من كيسه الكبير المعلّق على ظهره علبتين فارغتين وضعهما بهدوء أمام "أبو راشد" وحين ابتعد عنه، أنزل الكيس الذي يحمله، وصرخ بصوت صبّ فيه جام غضبه:

– أبو راشد يا ابن........

ثم ضحك بسخرية، حمل كيسه وهرب، يقفز مثل

أرنب..

ومنذ ذلك اليوم اتسعت بينهما فجوة الجفاء، وتحوّلت إلى كراهية متبادلة كنت أحسّها وألمسها من نظرات ياسر وحرصه على الابتعاد قدر ما يستطيع عن خطوط التماس بينهما..

وكان عبد القادر على النقيض، يصطحبه إلى معظم الأماكن التي يقصدها في جولة عمله اليومية المقتصرة على نقل حمولات من بضائع مختلفة من مكان إلى آخر..

يحبه وينقذه من مضايقات الأطفال والكبار أحياناً.. مؤكداً أكثر من مرة على تفوق ياسر عليهم جميعاً (على الأقل) بما يجري في شرايينه من دم زمرته نادرة قلّما يحمل مثلها الكثيرون..

وكان ياسر يبادله الحب، يرتاح إلى رفقته ويعيش أحلى ساعات عمره وأقصى مشاعر سعادته عندما يركب واقفاً في صندوق الشاحنة السريعة التي تجعل الريح تضرب وجهه، وتعبث بشعر رأسه ولحيته المهملة الكثيفة، وتنفخ الثوب الفضفاض الذي يرتديه ويحزمه من وسطه بخيط فوق قمّة كرشه..

ذهلت عندما رأيته يجلس القرفصاء أمام باب بيته حزيناً كما لم أره من قبل..

يدفن رأسه بين راحتيه، ويعتصر دمعة تأبى مغادرة

مآقيه..

ما أن رآني حتى هب واقفاً، نظر إلي بحنان جم وضمني بين ذراعيه القصيرين وابتسم بفرح طفل..

سألته أحاول إخراجه من موجة الحزن التي تجتاحه..

– سمعت أنك تفتّش على دليل الهاتف..

لوى رأسه بحسرة وتمتم..

– لم يعد الأمر مهماً.؟

ثم نظر في وجهي وأردف.

– دليل الهاتف فيه ألف رقم.. كلها أرقام الحكومة..

– الحكومة مرة واحدة..

– أنت لا تعرف الحكومة.؟ هربتُ منهم، جاؤوا أكثر من ألف شرطي في سيارة.!

فتح عينيه بدهشة وتابع على وتيرة الحماس ذاتها:

– حبسوا كل الناس.. وأنا هربت.. ركضت وركضت حتى وصلت الزقاق.. وضحكت عليهم.؟

ضرب على صدره بحسرة كأنه تذكّر أمراً مهماً وتمتم بحزن:

– سرقوا كيساً فيه أغراض بألف ليرة..

– من.؟ الحكومة.؟

نظر إلي باستخفاف وضرب بيده على عرق نافر في ساعد يده الأخرى وأجاب باقتضاب:

– لم يعد الأمر مهماً..

في ذلك الصباح الباكر انطلق ياسر مع عبد القادر في الشاحنة ذاتها لنقل صناديق تحتوي على أطعمة مختلفة إلى أحد المتنزّهات القريبة من المدينة..

وهناك اكتشفت عينه الخبيرة بحكم العادة عدداً لا يستهان به من علب الكولا الفارغة ملقاة بين الطاولات، فاندفع يلتقطها ويدسّها واحدة بعد الأخرى في كيسه الكبير..

وفي طريق العودة توقفت الشاحنة أمام بيت يشبه القصر حوله حدائق غناء وأشجار باسقة..

ثم تتالت الأحداث بسرعة غير متوقعة فقد أخذته سيدة (يبدو أنها كانت في انتظاره) متأنقة وعلى قدر من الجمال، ومضت به إلى داخل البيت، غاب فيه أكثر من ساعة، وعندما خرج كان يحمل بين يديه كيساً أصفر اللون، فيه كثير من الخبز واللحم، وقطعة قطن طّبي ملتصقة على عرق نافر في ساعده الأيسر..

قالت السيدة وهي ترافقه إلى الباب الخارجي:

– كلما طلبناك ستحصل على كيس مثل هذا، وكلما احتجت شيئاً.. أي شيء، لا تتردد بالاتصال بنا..

نحن الحكومة..

حمل ثروته المعبأة في الكيس الأصفر وكأنه امتلك دنيا جديدة، وركنه بحرص بالغ في زاوية أمينة من صندوق الشاحنة..

قال له عبد القادر:

– لك أن تفرح.. ربحت كيساً فيه ألف ليرة.!

لكن فرحه الكبير لم يدم طويلاً فقد لاحقته لحظة ولوجه ذلك السوق الضيق مجموعة من الرجال المكلّفين قمع المخالفات ومكافحة التسول..

شدّ جلبابه الطويل وانطلق بكل ما أوتي من قوة بين الأزقّة والزواريب، ألقى كيس النفايات الكبير المعلّق على ظهره، وقبض بإصرار على الكيس الأصفر وهو يركض هارباً..

يتعثر تارة بخطواته المتخبطة، وتارة بأكتاف وأقدام الناس المتزاحمين في السوق..

وقد فوجئ بأبي راشد يغلق أمامه الطريق، ويفتح ذراعيه للإطباق عليه، ولم يجد إلا أن يقذفه بالكيس الأصفر الذي يحمله مغتنماً فرصة المفاجأة ليتجاوزه وينطلق من جديد بقوة وعزم..

في لحظة الانعطاف الأخيرة حانت منه التفاته إلى الوراء، ليشاهد بحزن كيسه الأصفر يغتصب بين أيدي

المطاردين..

دخل الزقاق الضيق الأخير ونجا..

تراكمت أمام عينيه صور كثيرة ومختلطة وهو يطوي وجهه بين يديه، يجلس القرفصاء ويحبس دمعة كادت تفيض من مقلتيه..

تذكّر في اللحظة نفسها تفاصيل الوجوه التي طاردته واغتصبت كيسه الأصفر..

واكتشف أنها ذات الوجوه التي سرقت بعضاً من دمه النادر..

ابتسم ببلاهة، وأرسل ذراعيه القصيرين في الهواء، وراح يقفز مثل عصفور..

ولم يلبث أن توقف فجأة عن ممارسة حركات مضحكة ليس لها معنى..

ربط كيساً جديداً كبيراً إلى ظهره، وانطلق يبحث في حاويات القمامة عن رزق أسرة تنتظره دون سواه..

كان قد وصل إلى نهاية الزقاق الضيق..

نظر إلي من بعيد ورفع يديه في الهواء كأنه يقول:

– لم يعد الأمر مهماً..؟

عندما غادرت متجري في المساء، وسلكت زقاقاً يطل آخره على ساحة كبيرة تقود إلى عالم لا يمت بصلة إلى

عالم المنطقة التي يعيش فيها ياسر مع من يعيش.

شبّه لي أنني رأيت عبد القادر وأبو راشد، يجلسان في صندوق شاحنة من ثلاث عجلات أخضر داكن يأكلان بنهم وتلذذ ما تبقّى من فتات لحم انتزع من قاع كيس أصفر.

❁ ❁ ❁

أرقــام.. وكومــة حـروف

حملته الأرصفة الغائصة في قاع المدينة..

لم تلفت اهتمامه واجهات المحلاّت الفخمة البرّاقة، ولا الجدران المتلألئة بعشرات الصور، متداخلة بفوضى مع عشرات الإعلانات الغريبة المشطّبة بألوان وعبارات شتى، ولا البضائع المزركشة والمهرّبة المفروشة بين الأقدام..

ولم يزعجه ضجيج الأصوات متفاوتة الشدّة والغريبة المطبوعة على أشرطة "كاسيت" رخيصة، ولا زعيق أبواق السيارات، وسباب الباعة الجوّالين، ولم يكترث باصطدامه المرة تلو المرة بأقدام وأكتاف الناس المتسكعين..

ألقـى نظـرة خاطفـة وغاضـبة علـى المغلّـف الأسـمر السـميك المعلّـق بـين أصـابعه، ثـم صـفقه علـى فخـذه بغضب..

لو أنه يعرف.؟ في هذا النهار الصيفي الدبق، كم عاهرة تسير إلى جانبه.. على الطريق ذاته.؟

خمسة.. عشرة.. أكثر أو أقل.؟

كان مولعاً بالحساب.. يعدّ الخطوات بين كشك سجائر وآخر.. بين مكتبة وأخرى.. يعد درجات السلالم واحدة بعد واحدة..

الطابق الأول.. الثاني.. الرابع..

يعدّ المراحيض المأجورة، وسُبُل الماء القليلة، ومحلاّت بيع الفراريج المشوية على الفحم، هنا وهناك..

يّحصي كم شهيقاً استنزف صدره بين شارع الصحافة، وشارع البيوت الخلفية..!

أخبره حسن همساً..

– إن أكثر الأقبية في هذه العمارات الضخمة.. "بيوت دعارة".!

لو أنه يستطيع الآن أن يحصي كم (لا) قيلت له من خلف الأبواب الممسكة بقدر الثقافة..؟

هذا المغلّف الأسمر، المحشو بكلام فارغ، يستحق دون شك كل (اللاءات) التي سمعها..

قالت له هدى بغضب، وهي تشرّح درس القيم الذي استفاض بشرحه بين يديها..

- إيـاك أن تحـدثني عـن الأخـلاق والشـرف والعيـب و.... كلها لم تحمل لي أصغر قطعة قماش ألبسها.!

تسمّر بين نفر من النـاس أمـام عنـوان صـارخ، كتبـه بخط رديء لكنه واضح وجلي صاحب كشك بيع الصحف والمجلات والأشياء الأخرى على لوحة كبيرة من الكرتون..

"مجرم يقتل سائق سيارة عامّة ويسلبه.. مائـة ليـرة.. فقط.!"

- أراهـن أن الجملـة التاليـة.. "لينفقهـا علـى ملذّاتـه الدنيئة"..

ابتسم بسخرية..

- الشـرفاء يموتـون فقـراء، ولا يورّثـون.. اللصـوص والقوّادون الكبـار يرتـادون فنـادق ومطـاعم وملاهـي خمس نجوم، ويضاجعون أجمل النساء..

ضرب المغلّف الأسمر على فخذه مرة ثانية..

- حتى المائة ليرة.. لا تكفي رفقة ساعة مع عاهرة..

قال حسن..

- خمسمائة ليرة، وعليك تدبير المكان..!

تراكمت الأرقام في رأسه.. كان مولعاً بالحساب..

زبونـان فـي اليـوم... فـي الشـهر... نحسـم أيـام الطمث.... في السنة..؟

صورة الفتاة العارية اللعينة التي علّقها ذات يوم بعناية على الحائط قبالة سريره تماماً.. تستثمر أنوثتها الدفّاقة بامتياز..

عاهرة خبيرة.. تكاد عن قصد تغطي بخصلة سائبة من شعرها الأصفر الطويل حلمة نهدها ليس أكثر.. بينما تترك قميص نومها الحريري ينحسر عن فخذيها..

مساء أمس، أطلقت مع نظراتها الشهية.. الحيوان الكامن فيه.!

وقف بوجل أمام الباب الأزرق.. تزايدت نبضات قلبه..

أحبها بصمت.. عشقها من بعيد.. قدّها الممشوق أثار في صدره ألف نشوة، كم اشتهى لو يعصرها بين ذراعيه، ويسكت الحيوان اللعين الذي لا يكفّ عن الزمجرة..

لكنها مثل فجأة القدر أحبت صديقه ورفيقه الوحيد.. ولم يلبثا أن تزوجا..

يومها أعلنت "هدى" بخيلاء أن حبيبها الذي اختارته دوناً عن العالمين يملك اللحظة والمستقبل..

قالت والبشر يطفح من عينيها:

– حبيبي يحمل بين جوانحه أنبل قضية..!

زرع في رحمها طفلاً.. واختفى.؟

قالوا سقط في بلاليع المدن الشمالية.. ذاب في مستنقع

معتقل صحراوي.. قتله ذباب المحيط..

طرق الباب طرقات خفيفة، ففتحت..

هدى.! بلحمها ودمها، هدى، وبريق ألف حلم داعب وسادته ردحاً من الزمن..

سقطت عيناه على لحم صدرها الأبيض الطافح من فرجة قميص نوم أحمر شفيف.. أمسكت يده المرتجفة، وألقت على وجهه فيضاً من شهوة شعرها المعجون بصباغ أصفر، ثم أغلقت الباب بهدوء..

همست وشفتاها تداعب شحمة أذنه..

- أعرف كم تشتهيني.. من أجل ذلك دعوتك..!

التصقت على صدره أكثر وتمتمت..

- لك معاملة خاصّة.. وسعر خاص..!

ارتمت فوق السرير الوثير..

وفي اللحظة نفسها اقتنصت عيناه مع فحيح لحمها الزهري، قطعة قماش صغيرة فاخرة.. لونها أحمر.!

عادت الأرقام تدوّي في رأسه..

منذ متى..؟ زبونان في الليلة.. في الشهر.. نحسم أيام الطمث..؟

اختلطت الأرقام من جديد، نسي مبادئ الجمع

والضرب والقسمة..

رأى عشرات الرجال يقومون ويقعدون فوق السرير، ينشرون في فضاء الغرفة الضّيقة روائح عرقهم النتن.. وهداياهم الحمراء الفاخرة..

لم يكن بينهم رفيقه وصديقه الوحيد صاحب المستقبل.. فأحّس بالغثيان..

أغلق وراءه الباب الأزرق بلا أسف.. ومضى..!

قال حسن..

– في المقهى آخر الشارع، تسأل عن السيد فريد..!

واحد.. اثنان.. خمسة.. سبعون.. ومغلّف أسمر ثقيل محشو بأوراق تحمل حروفاً جوفاء، تتحدث عن الظلم والوطن والمستقبل..

لا تهم الناس.. هكذا قالوا...

واحد.. اثنان.. خمسة.. سبعون.. يتلقّفه الشارع.. يقوده الرصيف إلى المقهى في آخر الشارع الخلفي..

تسارعت خطواته.. لابد أن يصل إلى غرفته اللعينة المحشورة فوق رتل من الدكاكين..

أشعة الشمس تلسع أدمغة الناس، وتطبعها على إسفلت الشارع، والحيوان اللعين ما زال يزعق ويزمجر..

أشعل اللفافة العاشرة، وراح يتابع باهتمام تصاعد

حلقات الدخان الثقيل المنبعث من حلقه الجاف، أصّر على تجاهل النظر إلى الصورة المعلّقة قبالته..

لمح جارته السمينة تنشر ثياباً تنزّ ماءً على حبال شرفتها المقابلة لنافذة غرفته.. رفعت ذراعيها فانحسر الغطاء المتقبّعة به عن كتفها.. شاهد بمتعة حقيقية ذراعها الأبيض الزهري، وإبطها النظيف..

أسدل الستارة على عجل..

ثلاث طرقات على الباب..

- أرسلني السيد فريد..!

ولم تنتظر ردّاً..

خلعت معطفها الصيفي الطويل وألقته بعيداً، جلست على طرف السرير، ثم دلقت نهديها خارج القميص دفعة واحدة، واستلقت دون أن تخلع البقية، وباعدت بين ساقيها..

قطعة قماش أخرى فاخرة وحمراء..

اقترب منها.. نظر ملياً في وجهها..

كأنها تشبه فتاة الصورة المعلّقة فوقهما..

كأنها تشبه "هدى"..

- منذ متى تمارسين الـ......

- عشرة أشهر بالتمام..

راح يتمتم..

زبونان في اليوم.. في الشهر.. نحسم أيام الطمث.. قاطعته..

– لا ترهق ذاكرتك.. أنا أطوي عددهم تحت جلدي.. رائحتهم تتخلل مفاصلي.. أنت الرقم 242..

دارت رأسه مع سحابات الدخان الضبابية..

هدى تقف وراء الباب الأزرق.

تغلّف جسدها ودمها وشهوتها في ثوب شفيف..

ألف (لا) تمتصّ بقرف كومة الحروف المكتظّة داخل المغلّف الأسمر، الملقى تحت السرير..

رائحة عرق نتنة تحتل الفراغ الباقي من فضاء الغرفة..

رجل ما زال يحمل صليبه، يجرّه فوق الأرصفة والمعتقلات الصحراوية وعتبات المقاهي..

ألف قطعة حمراء تخفق في درب أحزانه وآلامه، تثير قبيلة من الثيران..

أخرج من جيبه خمسمائة ليرة..

سفحها على الفخذين الأزرقين..

ومضى..

أحسّ بأن الحيوان القابع في أعماقه.. قد هدأ، واستكان..!

حيــوانــات أليفـــة

ثلاثة رجال انقضوا عليّ في وقت واحد، دفعوني إلى مدخل بناء قريب.. غرزوا وجهي في الحائط، وباعدوا بين ساقيّ، وفتشوني تفتيشاً دقيقاً، انتزعوا كل شيء من جيوبي.. أوراقي ونقودي وعلاّقة المفاتيح التي تحمل على صفحتها صورة لخريطة فلسطين. ودفعوني بينهم إلى سيارة نوافذها سوداء تقف على طرف الشارع..

جلست في المقعد الخلفي محشوراً بين اثنين منهم، لم تنفرج أسنانهما عن كلمة واحدة، في اللحظة نفسها رأيت الشاب المتوسطي الأسمر، ذو الجبهة العريضة والشارب الأسود الدقيق، يجلس متوتراً قلقاً على المقعد الأمامي، ينظر إلي بطرف عينه بين الحين والحين..

كيف تقفز تلك الصور أمامي الآن.؟

تحركّت فجأة، تحمل أشكال أشباح تراءت لي من قلب

الظـلام الـدامس الـذي أجلـس فيـه، كأنهـا تتشـكل اللحظـة بلحمها ودمها، رغم انقضاء سنوات كثيرة تراكمت عليها..

أذكره جيداً ذلك الضابط الفرنسي قصير القامة..

الفارق بينهما أنـه كـان أنيقاً وحليقاً ويرتـدي بـزّة زرقاء مليئـة بـأزرار نحاسية برّاقـة، تغطـي رأسـه قبّعـة مربّعـة تشبه كوز بائع الحليب، يحاول الاحتفاظ بابتسامة إنسانية رائقة وهو يتابع التحديق في وجهي، ويلثغ لغة فرنسية لا أفهمها، اكتشفَ ذلك بعد حين، فاستبدلها بإنكليزية رديئة راح يرطن بها قصدت أن لا أفهمها..

أحرك رأسي ببلاهة، متظاهراً بأنني لا أفهم شيئاً..

* * * *

صفعات كثيرة، وركلات أكثر اعترفت على إثرها أنني فعلت ذلك..

بعد لحظات قذفوني إلى مكان حالك الظلمة.. وأغلقوا ورائي صفيحة الحديد..

لابد أنها جدران تلك التي تحيط بي، جربت أن أشاهد كف يدي فلم أفلح، لكنني استطعت بعد محاولات كثيرة أن أطمئن على حاسّة اللمس عندي، ما زالت بخير.

السقف منخفض ينزّ رطوبة، كأنه يحمل فوقه ساقية ماء، الجدران قريبة حتى تكاد تطبق على بعضها، والأرض ليست مستوية تحت قدميّ..

تلمّست نتوءاً في الركن.. تحرك عندما اتكأت عليه وكاد يقع ويوقعني، سطل أو علبة.! شيء مثل وعاء ينضح رائحة ماء آسن لا يصلح حتى لاستخدامه ككرسي أريح عليه أعضائي المتعبة..

أخيراً وجدت فسحة تتّسع لجسدي فجلست، ولم ألبث أن غبت في النوم، ربما ساعات وربما لحظات..

كل ما أذكره أنني صحوت على أصوات مرعبة، تصرخ وتستغيث، وتخرج رؤوسها كما أحاول أن أفعل من تحت صنابير تصبّ عليها سيلاً من ماء مثلّج..

– عصابة تخريب يا أولاد الحرام..

تطايرت كلماته مع تطاير شحنة رذاذ بصاق انتشر على وجوهنا جميعاً، واستطاع أن يرفع قامته القصيرة المغطاة بشعر كثيف أسود على أطراف أصابع قدميه المحشوّة في شاروخ جلدي أسود، وأن يمسك بعنف شعر الشاب الواقف إلى جانبي ويجذبه بقوة توقعه على وجهه..

– إرهابيون.!

كنا أربعة أشخاص، أعتقد أنني أكبرهم سنّاً، ولم أكن عرفتهم أو رأيتهم من قبل..

أذكر أنني في ذلك اليوم كنت وحدي..

تقاطيع وجهه النظيف المرسومة بعناية لم تتوقف عن الابتسام، حتى حسبت ذلك الوجه الطفولي صورة للشق

السمين بين الثنائي "لوريل وهاردي" ولم يتوقف عن التحدث.

بعد لحظات أدرك أنني لا أفهم شيئاً مما يقول..

خرج من الغرفة وتركني وحدي نصف ساعة ليعود برفقة رجل أسمر، قاسي الملامح، يقفز اللؤم من عينيه.. نظر في وجهي طويلاً ثم أردف بلغة عربية سليمة وهو يلكزني بإصبعه:

- إرهابي.. هاه.!

حرّكت رأسي باستغراب، هي المرة الأولى التي أسمع فيها مصطلحاً كهذا ولا أفهم ماذا يعني.!

في غرفة واسعة شرحة، أجلس على كرسي جلدي مريح، أمامي فنجان شاي كبير، وعلبة سجاير، وفوق رأسي تماماً مصباح قوي يتحرك يمنة ويسرة، ويرسل ظلالاً مختلطة في كل اتجاه..

الرجل الأسمر اللئيم يتحدث همساً إلى الرجل القصير البدين، ذو الأزرار النحاسية..

يقرأ له من أوراقي الملقاة على الطاولة أمامهما، أمسك دفتري الصغير، ضربه عدة مرات على الطاولة، سألني بسخرية:

- ما هذا...؟

– جواز سفر..

أطلق صفيراً طويلا وهو يقلّب بين يديه ذلك الدفتر بسخرية بادية..

أدركت أنني تماديت وتجاوزت حقوقي في اختيار الصفات، لو أنني قلت إنها وثيقة سفر مؤقتة.. تحمل تأشيرة نظامية ممهورة بخاتمين رسميين من دولتين سمحتا لي بالخروج من دولة والدخول إلى أخرى بشكل نظامي.

مؤسسة تلك الموافقات النادرة على دعوة من شركة فرنسية كبرى عملت مع فرعها في البلد الذي أقيم فيه فترة من الزمن، وأثبتّ خلال عملي جدارة مهنية أسهمت بالترويج لمنتجاتهم من المعدات والآلات. كافؤوني بدعوة على نفقتهم الكاملة للزيارة والاطلاع.

استقبلني في مطار أورلي باريس أحد مندوبي الشركة، رأيته يقف بين الناس، يحمل على صدره لوحة مكتوب عليها اسمي بحروف لاتينية كبيرة، رافقني مباشرة إلى فندق الإمبراطور ذي النجمات الأربع، وسلّمني ورقة طويلة تحمل تفاصيل برنامج زيارتي على مدى شهر كامل..

* * * *

أعلموني في الصباح الباكر أن مجموعة من السياح الأجانب ستتناول طعام الغداء في مطعمي المتواضع الذي افتتحته منذ زمن قريب.

أحد أقربائي يعمل مدرّساً في دولة من دول الخليج، قدّم لي مبلغاً من المال بقصد الاستثمار على أن نبدأ مشروعاً مثمراً..

أنا بجهدي العضلي، وهو برأس المال.. ولم أجد بعد البحث والتمحيص، وبعد أن نفضت لأسباب صحيّة عباءة المهنة التي أتقنها، أفضل من الاستثمار في عالم الطعام والغذاء، وجدتها فرصة مضمونة لتحقيق أرباح معقولة، فالطعام وحده بين حاجات الإنسان ما لا يمكن الاستغناء عنه، ويبقى في المنظور العام، وفي السلّم ضرورة بل ومن أهم الضروريات.

افتتحت المطعم في منطقة ريفية، على طريق عام ومطروق، يؤدي إلى مناطق سياحية وأثرية، تركتها لنا قبائل "الأنباط" قبل أن تنقرض..

كنا نستقبل بعض المجموعات من السائحين بين الحين والحين،اعتماداً على ألق المواسم السياحية، ولابد لي أن أعترف أن العمل في المطعم استهواني، فقد حقق لي ولأسرتي دخلاً معقولاً، وفتح أمامي فسحة لإقامة علاقات طيبة مع الآخرين.

وما وجدته أهم ما في الأمر أنه أي العمل في المطعم أزاح عن كاهلي الشعور بالخيبة والملل والفراغ، فقد أخذ اهتمامي وكل وقتي..

أجرينا استعداداتنا على قدم وساق، وما أن انتصف النهار حتى كنّا على أتمّ جاهزية لاستقبال المجموعة الموعودة..

أعترف أن الأعمال لم تعد مزدهرة كما كانت.

كنا نستقبل أفواجا من الناس أهل البلد الراغبين بالتنزّه يتناولون طعامهم مرة في الشهر على الأقل خارج بيوتهم، وقد افتقدنا حضورهم بالكثافة ذاتها منذ مدّة ليست قصيرة، وهذا ما دعانا للاعتماد شبه المطلق على أفواج السائحين..

وقفت الحافلة الطويلة أمام المطعم، وبدت رؤوس كثيرة تطل من النوافذ، وعدسات آلات كثيرة أيضاً تطلق فلاشات مضيئة في كل اتجاه..

رأيت بينها للحظة نجمة سداسية زرقاء على لوحة بيضاء، فطار صوابي..

أغلقنا باب المطعم على عجل، وتوارينا في المطبخ مبتعدين عن الأنظار..

لحظات واقتحم المكان ضابط برتبة كبيرة، حاول أن يذكّرنا بلغة عربية فصيحة، بصفات الكرم والشهامة وحسن الضيافة التي نشتهر بها..

جرت الأحداث بسرعة..

حقيقة أنني لم أملك زمام نفسي وأنا أندفع إلى الخارج، وأصرخ بأعلى صوتي:

– لن أستقبل في مطعمي أحداً منهم إلا على جثتي..

فوجئت برجال لا أعرفهم ولم أرهم من قبل يقفون إلى جانبي.

ورحنا نتدافع نحن والضابط وثلاثة رجال يرافقونه ببزّاتهم الرسمية، واستطعنا أن نحشرهم في الحافلة التي انطلقت مبتعدة بسرعة.. تلاحقهم حجارتنا وسبابنا..

* * * *

صبيّة زنجية فرنسية كلّفها مسؤول العلاقات العامّة في الشركة مرافقتي في جولة اطّلاع على أحياء باريس وأهم المعالم فيها..

عندما اقتربنا من الحي اللاتيني أطلقَت ضحكة صاخبة وهي تشير إلى مظاهرة من الناس تسير على مقربة منا، يحملون شعارات ولافتات لم أفهم ما كتب عليها قالت:

– يطالبون بتحسين غذاء القطط المعلّبة بعد أن اكتشفوا تلاعباً في نسبة البروتينات المفترض مراعاتها بدقّة، حرصاً على صحة تلك الحيوانات الأليفة..

بعد أيام حاولت أن أتجول وحدي في المدينة العظيمة رغم أن التجوال وحيداً في أمكنة جميلة لا يشعرك بسعادة فائقة، لأنك لا تستطيع أن تعطي انطباعك محكيّاً، لتعيش الفعل وردِ الفعل على حد سواء وأنت تشير إلى المعالم التي تشّد انتباهك، يشاركك بل ويضيف إليها طرف آخر.

ورغم إيماني بذلك إلا أنني شعرت برغبة في التجوّل..

طلبت سيارة أجرة، وحملت بطاقة باسم الفندق وعنوانه ورقم هاتفه..

قلت أذهب أين أشاء، وحين أعود أعطي البطاقة إلى السائق فيعيدني من حيث أتيت..

في شارع عريض طويل، على جانبيه محلاّت كبيرة، ومعالم كثيرة طلبت من السائق التوقف، أعلمني أننا في دائرة شارع الهال..

نزلت وبدأت جولة جميلة وأنا أراقب ما حولي من بشر وحجر وغانيات يتسكعن في كل ركن.

أتمشّى على رصيف عريض نظيف عندما وقف أمامي وجهاً لوجه..

نظرت إليه بدهشة ونظر إلي، لفتت انتباهي سمرة بشرته، وجبينه العريض، وشاربه الأسود الدقيق.

ابتسمت له برقّة، فابتسم لي، قلت في نفسي:

– وجدت أخيراً رفيقاً أتحدث إليه ويبادلني الحديث..

أشار بيده إلى وجهي فأشرت إلى وجهه أيضاً، سألني بصوت خفيض:

– ميدل إيست.؟

– وي.. نعم، حوض البحر الأبيض..

افلتت الكلمات من فمي بلغة عربية، ففتح فمه دهشة..
أجابني بلغة عربية أيضاً:

- عربي.؟

- فلسطيني..!

أجبت بلا تركيز، تملأ خيالي صورة لقاء غير متوقع بين شخصين من بلاد واحدة في بلاد غريبة، وما لذلك من أثر طيب..

ولم أتوقّع للحظة واحدة أن تنقلب نظراته الهادئة، إلى نظرات من شكل آخر، خوف ورعب ومفاجأة غير متوقعّة..

ارتدّ خطوتين للوراء، ثم انطلق يعدو على غير هدى مبتعداً قدر ما يستطيع.

نزل إلى الشارع بين السيارات، وأنا أقف في مكاني واجماً، تلسعني نظرات الناس الطافحة بالشكوك..

بعد دقائق لم أكن قد ابتعدت كثيراً انقض علي ثلاثة رجال، ودفعوني إلى مدخل بناء.

غرزوا وجهي في الحائط، وباعدوا بين ساقي، فتشوّني بدقّة.. وقادوني إلى مخفر قريب..

قال الرجل الأسمر الذي يتكلم العربية بطلاقة وهو ينقر نقرات رتيبة على الطاولة، وينقل ترجمة كلمات يرددها السمين المبتسم في بزّته الزرقاء الأنيقة ذات الأزرار

النحاسية:

- من الأفضل أن تشرح لنا الأمر، نحن نفهم تماماً ماذا يمكن أن يحدث في نهاية مطاردة بين عربي فلسطيني (رددها أكثر من مرة وهو ينقر بإصبعه على صدري) وبين يهودي تونسي (وأشار إلى الرجل الأسمر ذو الجبهة العريضة الواقف أمام الباب)..

تملكتني حيرة شديدة..

جرت الأحداث بسرعة غريبة وغير متوقّعة.. ورحت أنقل ناظري بين الثلاثة، ولا أدري ماذا أقول..

جلس قبالتي تماماً حتى التصقت ركبتاه بركبتيّ..

ابتسم ابتسامة يبدي من خلالها معرفة خارقة بخفايا الأمور، وقال بصوت هادئ:

- نحن لا نسمح أن تجري تصفية حسابات همجية إرهابية على أرضنا، لذلك من الأفضل ولمصلحتك في كل الأحوال أن تدلّنا كيف تخلّصت من المسدس الذي أشهرته في وجهه..

بعد ساعات كثيرة، تدخّل مسؤول العلاقات العامّة في الشركة التي استضافتني، وأخرجني من المخفر بعد مجموعة من الإجراءات شملت تصويري بأوضاع مختلفة، وأخذ بصمات أصابعي العشرة، وإجراءات أخرى.

ليرافقني مباشرة إلى فندق الإمبراطور ذي النجمات

الأربع، ومنه إلى مطار أورلي لتحملني طائرة، وتعود بي مباشرة إلى البلد الذي أتيت منه..

* * * *

بعد لحظات اكتظ المكان برجال الشرطة، والبوليس السري، حملونا عنوة، وألفينا أنفسنا أنا والأشخاص الثلاثة الذين وقفوا إلى جانبي ساعة طردنا قافلة اليهود، ولم أكن قد رأيتهم من قبل أمام رجل قصير، يكسو الشعر الأسود ما ينكشف من لحمه المتهدّل، ينتعل شاروخاً جلدياً أسود.

استقبلنا بالصفعات والركلات، ثم فجأة انفرجت أسنانه الصفراء على ابتسامة فاترة، شحنها بفيض من شماتة مقصودة، ألقى أمامي مجموعة من الصور وهو يردد بسخرية:

– تستطيع الآن أن تعترف لنا بكل شيء..

– أعترف أنني فعلت ذلك..

قلت باستسلام، شعرت أن أعضائي لا يمكنها أن تتحمّل أكثر مما تحمّلت..

ابتسم بانتصار، سحب صورة من مجموعة صور منثورة على الطاولة أمامنا، ودفعها أمام وجهي حتى كادت تلتصق به، وأردف بخيلاء:

– إرهابي دولي، هاه..

نظـرت إلـى الصـورة، فـي اللحظـة نفسـها أفلتـت منـي ضحكة لم أستطع السيطرة على كتمانها، أوشكت أن أصرخ وأقـول إنهـا صـورتي وزنجيـة فرنسـية نتفـرّج علـى مظـاهرة تطالب بتحسين طعام القطط.. لكننـي لم أفعل، فقد قاطع شرودي صـوته الأجشّ وهو يفسّر لـي بذكاء ما معنـى أن أقف وسط مظاهرة حاشدة، تماماً تحت لافتة مكتوب عليها (لتذهب الحكومة إلى الجحيم)..

لـم أملـك سـاعتها إلا ضـحكة بلهـاء لـيس لهـا معنـى، أطلقتها وأنا أساق إلى زنزانتي المنفردة شديدة الظلمة..

❀ ❀ ❀

بريــق السنـــابل

ريح غربية داعبت رؤوس السنابل، فتمايلت يمنة ويسرة، مشتّدات فوق سيقان متزّاصة بعضها إلى بعض.. ذهبت صفحاتهن أمواجاً وراء أمواج.. موجة إلى الشاطئ، تقّبله بعشق وترّتد. ترافق شقيقاتها إلى العمق البعيد وتّحط معهن على شفير الأفق.. كأنهن يضربن الشمس وهي تغوص في لحم البحر، تلّونه بالوردي الحالم، فيضيف إلى جمالها الأخّاذ بريقاً ليس له شبيه..

فرك سنبلة بين راحتيه الخبيرتين، فتناثرت منها حبّات قمح ملأت كفّيه، ناضجة تنتظر الحصاد، وعليه أن يبدأ فعل ذلك في الصباح، بعد أن تعلك خيوط الشمس الدافئة حبيبات الندى الراحلة إليها..

حقل وراء حقل، فوق أرض ممتّدة من ضفاف نهر شرقي، ابتلع موجات الغزاة، وغرقت في قاعه حروف سيل

عرم من تاريخ طويل، إلى لجّة نهر اغتسل وتطهّر بحوافر خيول سيوف الله.. تضيء بينهما ميادين قمح وشعير وزعفران..

حقول خلفها حقول، وعظام آدمية فوقها عظام..

الشمس توّدع هالة النهار، وتجري غاربة إلى مستقر لها، تّجر أشعّتها ودفأها ودفق الحياة الذي تعطيه، على موعد انتظار صباح جديد، تدّب فيه وتشتّد حركة لا هوادة فيها مع هدير حصّادات حديثة تمخر عباب السنابل تفصل حّب القمح عن أصَلِه..

موسماً وراء موسم.. وسنةً بعد سنة.. والأرض على ما تعوّدت، تجود.. وتعطي ولا تتعب..

– في هذه الجحور، تدفن مواسم الخير.. يخبو بريقها الزاهي بين النهود والأفخاذ..!

همس "مختار" في أذنه وهما يحّطان الخطى على أول درجات الملهى الليلي الملقى في قبو بناء شاهق، على ضفاف شارع خلفي، في المدينة الصاخبة..

بهرته حرارة الصور الملوّنة والبّراقة المرصوفة بعناية بالغة داخل إطارات أنيقة، وراء زجاج سميك، لصبايا في عمر الزهور، جمالهن يضاهي بريق السنابل، تتنافس على إبراز نهودهن وأفخاذهن، ونظراتهن المشبعة باللهفة والشبق والدعوة..

– هذه الأراضي الشاسعة المترامية على امتداد النظر، مازالوا يزرعها (الإقطاعيون) مواسم قمح وشعير تتّكفل السماء برعايتها.. يستفيدون من التسهيلات الممنوحة إلى صغار الفلاحين.. يستأجرون أراضيهم بأثمان بخسة، ويقتنصون مخصصاتهم مخفّضة القيمة من البذار والأسمدة والأدوية وأفضلية التسويق، ثم يراوغون ويبيعون معظم ما تنتج الأرض في السوق السوداء.. ويلتقون مع صغار الفلاحين، قابضين الفتات في جحور المدينة هذه، يدفنون فيها جوعهم وعارهم ومواسم الخير..

المكان صاخب، تندلق الموسيقى فيه على إيقاع متعب، تعشّش في زواياه الكثيرة غيوم ضبابية تضيف إليها الأضواء الملوّنة كثافة عجيبة وتحرّكها بكسل مقيت، تارة إلى الأعلى، وتارة إلى أنوف الناس.. تختلط مع روائح التبغ والعطور وعرق الرجال وأبخرة الخمور، وسط جلبة القوّادين المتحركين بدراية وخفّة حول الغانيات، يتابعون تلبية طلباتهن المسفوحة على الطاولات، وهن يتمايلن بغنج، يطرحن لحومهن بين أصابع الرجال المكتظّين في المكان، بملابسهم الفضفاضة، يعتمرون كوفيات بيضاء هفهافة، وعقالات أنيقة..

عدا ذلك الرجل الجالس قرب الباب الرئيس، كادا يتعّثران وهما يدخلان المكان بساقه الممدودة أكثر مما تقتضي اللياقة، يعلّقها فوق الأخرى، يسترخي ببلادة على المقعد الجلدي الضّيق، وراء طاولة صغيرة تكاد تتّسع لعلبة سجاير

فاخرة، ووّلاعة ذهبية، وزجاجة خمر طويلة العنق..

يعتمر هو الآخر كوفية بيضاء ، يلّف بها وجهه الصغير الممتلئ بعينين واسعتين، يحملق حوله، يراقب وجوه الناس وحركاتهم كفأر متحفّز..

وحده يرتدي بذلة صفراء فاقعة اللون، فوق قميص أخضر، فيبدو نموذجاً مختلفاً عن الجميع، شكلاً سخيفاً لمهرّج فاشل في سيرك رخيص..

اختارا مكاناً في ركن قريب، يطلّ بجلاء على ساحة مدوّرة مرتفعة قليلاً تتوسط الصالة، وتستقبل صفحتها طعنات الأضواء الملوّنة المصوّبة عليها من كل اتجاه، لم تلبث أن اعتلتها امرأة تجاوزت العقد الثالث من عمرها، وراحت دون مقدمات تتمايل على أنغام أغنية صاخبة، تهزّ كتفيها قدر ما تستطيع، فتتلاطم كتلتان لحميتان مدلوقتان خارج ثوب فاضح يترك فسحة طيبة من أسفله أيضاً، ويبرز فخذين أبيضين تضرب عليهما بكفيّها بين الفينة والفينة، وتشير بأصابعها دعوات للمتفرجين وسط تصاعد صرخاتهم..

لم ينتبه (حسّان) إليها لحظة جلست بينهما، كان مأخوذاً بالتفّرج على طاقم جديد اعتلى خشبة المسرح..

ثلاث فتيات مستوردات من بلاد الضباب، بيضاوات شقراوات، نحيلات طويلات، يتحركن كالنسمات، عاريات

إلا من وريقة توت صغيرة صغيرة، يتقافزن حول بعضهن، وفوق بعضهن، همساً ولمساً وفحيحاً، مستشرفات صورة مثيرة لسحاقيات يتبادلن النشوة..

ساد المكان سكون مطبق، إلا من تأوهاتهن انسحاباً على مشهد مفرط في الإثارة..

– مثيرات، أليس كذلك.؟

همست في أذنه من قرب شديد.. اشتمّ رائحة تبغ قويّة اخترقت أنفه مع سخونة أنفاسها..

– ونحن أيضاً..!

تابعت وهي ترمي في عينيه نظرة مترعة رغبة ودعوة.. وأحاطت رقبته براحتيها ودفنت رأسه بين نهديها.

لوهلة لم يصّدق.؟

كيف استطاع (مختار) مساعده في متابعة عمل الحصادات فنّياً وإدارياً لهذا الموسم أن يزّين له الأمر على صورة مدهشة.؟ ثم يغريه على ولوج عالم غريب عن أخلاقه..

انتفض.. وتصبّب العرق من جبينه، وحاول أن يبتعد عنها قدر ما يستطيع..

– المرة الأولى.. هه.؟

سألته دون أن تنتظر إجابة، وهي تحرّك إصبعها أمام

وجهه، ثم ألقت يدها على فخذه..

اقترب "مختار" بوجهه منها، وهمس في أذنها كلمات قليلة، تبادلا بعدها ضحكة ساخرة..

إنها المرة الأولى التي يعيش فيها لحظة حقيقية تقرّبة من تحقيق رغبة ملّحة.. ومحّرمة..

صبيّة مثل الدمى التي تزخر بها واجهات المحلاّت الراقية تجلس إلى جانبه.. جميلة وصغيرة وشهّية.. على صفحة وجهها مسحة بحرية، كموجة عادت لتوّها من رحلة داعبت خلالها قامات السنابل السمراء.. يعرف بريقها، ويعرف كيف تغوص، وتطفو ثم تعود..

لو يعتصرها بين ذراعيه، يترك أصابعه تمشّط بريق فخذيها.. ينتزع فستانها الأحمر القصير.. و.......

اجتاحته رغبة مماثلة ذات يوم، تمنى لو يحمل جسد زوجته الرائع ذلك الثوب الأحمر الشفيف الفاضح المعروض على واجهة أحد المحلات ولو لليلة واحدة، وحين سيطرت عليه تلك الرغبة.. دفع ثمنه وحمله إليها..

- كبرنا عن مثل هذه الأمور..!

قالت زوجته بنبرة جادّة، ثم ألقت الثوب جانباً، ورفعت الغطاء إلى رأسها، وراحت تغط في نوم عميق..

أحسّ نزيز عرق بارد يكاد ينضح من جبينه.. وشلال خجل يصبّه عليه صبي مراهق يركض بين أضلاعه.. أدار

ظهره في الفراش، وحاول أن ينحي عنه شعوراً بالخيبة.. ونام..

– ما اسمك.؟

سألها بعد أن استجمع شتات شجاعته..

– سمّني ما شئت.. الأسماء عندي سواء..

أجابته دون اكتراث وهي تطعن ركبته بطرف ساقها.. نظر إلى "مختار" بحيرة، فابتسم له..

– أراهن أننا سنكمل السهرة في مكان آخر.!

أردف "مختار" بثقة، وهو يغمز لها، فابتسمت مستسلمة..

– عليك إذن أن تتفق معها..

خرجت الكلمات من شفتيها معلوكة وهي تشير إلى (المدام) السمينة المحشوّة في كرسي بعيد..

سيضاجعها في الصباح.. أول ما تستيقظ.. يكتشف أنها تبدو على صورة مختلفة تماماً. تشبه الجيفة، صفراء زرقاء ممصوصة حتى النخاع.."هكذا تقول الحكاية".. نظر إليها مرة أخرى..

هذا الصفاء الساكن في خضرة عينيها، كوريقات دفلى أول تفتّحها، هذه الوجنات المشدودة، والشفاه المحتقنة، هذا الشعر الوحشي المجنون، يخفق على سارية جسد ممشوق

كقضيب رمّان ريّان.. هل يصير إلى هالات صفراء في جيفة مترهّلة..؟ هل تتبدّل المعالم في ظلام ليلة..؟

– اصطحب صديقتي.. كم هي جميلة.. وجديدة.!

قالت بغنج وسكتت لحظة، ثم أردفت وهي تشير إليهما:

– أنتما اثنان.!

الرؤوس بدأت تترّنح، وأوراق نقد كبيرة وكثيرة ترشّ فوق أجساد الراقصات وتحت أقدامهن.. ترصّ قلائد على صدورهن وحول أعناقهن.. فيسارع ضارب الطبلة إلى جمعها بلهفة من تحت الكراسي والطاولات ومن بين الأقدام.. يسود الهرج والمرج، وفرقعات ضحكات خليعة مقلوعة من قاع الحلوق.. ترتفع وتيرة النشوة تواكب تصاعد وتيرة صفق العقالات على الأرض..

إلا صاحب البذلة الصفراء الفاقعة، لا يزال في جلسته الهادئة، يتطلّع في وجوه الناس بعيون متحجّرة، ويعبّ بين الفينة والفينة شراباً من كأس أمامه..

– يحضر كل مساء، يأخذ مكاناً خلف الطاولة ذاتها، لا يعبأ بالنساء.. يبقى جالساً على وضع واحد لا يبدّله وحتى ساعة الإقفال، هكذا كل ليلة.. منذ ثمانية أيام لم ينقطع ليلة واحدة.. يحدّق في وجوه الناس وأردافهم، ولا يستسيغ رفقة امرأة.. لابد أنه لوطي..!

كانت تتكلم بشكل متواصل، تتحدث عن أي شيء وفي كل شيء.. قالت أنها ومثيلاتها لا يتقاضين أجراً منتظماً.. الأجر فقط لمن يعتلين المسرح، ويقدمن رقصات أو أغنيات..

أما أجرهن فهو نسبة مما يدفعه الزبون ثمناً لزجاجات الخمر، أو ثمناً لقضاء فسحة محدّدة من الوقت مع إحداهن بعد أن ترتّب (المدام) الأمر، أو ما يقدرن على تصّيده من جيوب السكارى..

قالت أن معظم رّواد المكان إما لصوص، أو أغبياء.. يبحثون عن متعة محرّمة، يحسبون أنها مختلفة، ولا يدرون أنهم يغوصون في مستنقع مليء بعرق الرجال النتنة أمثالهم.. ثم يقودون أسرهم وعائلاتهم إلى مصائر مجهولة..

قالت إن الفقر والحاجة وغدر الرجال أوصلهن بطريقة أو بأخرى إلى هذه الجحور.. قالت:

– عندما ينتهي موسم الحصاد، تعودون إلى بيوتكم، ونحن نبقى في انتظار مواسم أخرى.. مواسم القمح والشعير والقطن والفستق والشوندر والبطاطا والخضراوات.. ومواسم السمن والصوف.. وكلما جادت المواسم بالخير، كلّما ازدهرت أعمالنا..

قالت بعد أن أدارت الخمرة رأسها أنها ابنة ناس بسطاء وطيبين، عاشت بينهم على حافّة الدنيا.. لم تكن سعيدة،

لكنها لم تكن جائعة أيضاً.. تنتظر خير المواسم مثل غيرها.. تتقن فنون الحرمان والعوز والتعب على هدهدة انتظار سبيل الخلاص، وحين يشرق جناحه الأخضر، يدفن خيره المجتبى في مثل هذه الجحور..

تحدثت كثيراً وبكت كثيراً، وحده يستمع إليها باهتمام.. يغيب في لحظات عائداً إلى عالمه الجنوبيّ البعيد.. هناك حيث بيته وزوجته..

ثلاثة أشهر في كل سنة، يخوض مع فريقه حرب الحصاد، بين سكاكين الآلات وهديرها المرعب، تحت حرارة شمس لا تطاق، وغبار من كل شكل ونوع..

ينام في العراء، تقوده الحقول الصفراء شرقاً وغرباً، شمالاً أو جنوباً.. حقل وراء حقل على أرض ممتدّة من نهر عاصر الإمارات والممالك، إلى ضفاف نهر ابتلع الإمارات والممالك..

لم يشتك في أي يوم، أدرك أن هذا قدره فارتضاه على صورته..

– عندما تعود مع صديقتها، نخرج بهما إلى الفندق..

همس "مختار" في أذنه، بينما لا يزال يحّدق في الرجل المركون هناك خلف الطاولة ذاتها، تضيف الأضواء الخافتة الملوّنة على شكله المضحك موجات بريق متقطّعة، تختلط معه لتصير إلى صورة شيطان أمرد، يرتدي بذلة

صفراء فاقعة..

ظهرت فتاتهم المتألّقة في ثوبها الأحمر القصير من باب منخفض في ركن الصالة، وإلى جانبها صبيّة تبدو أصغر سناً، تحمل في تقاطيع وجهها الأسمر موجة ذهبية ارتدّت منذ قليل بعد أن مارست طقوسها، وقبّلت رمال شاطئ ما..

كانت وجلة متهيّبة وهي مقبلة عليهما بخطوات متعثّرة..

اقتربتا أكثر، بدا وجه الصبيّة أكثر براءة وجمالاً..

في اللحظة التالية، نهض صاحب البذلة الصفراء، اقترب منهما حتى مسافة متر أو أقل، وصرخ بصوت كأنه صيحة عاصفة، فوق صفحة ماء راكد:

– نوف...

التفتت الصبيّة مذعورة، مدّت كفيّها تخفي وجهها، كأنها تتّقي بهما شيئاً توقّعته، ولم يكونا ستاراً واقياً بما فيه الكفاية لخمس رصاصات انطلقت بسرعة فائقة دون توقف، طرّشت دمها في أرجاء المكان..

سحابة صمت هطلت رهبة فوق رؤوس الناس المنبطحين أرضاً، توقّفت الموسيقى والضجيج وتأوهات النسوة وشهوة الرجال، بينما بقيت الأضواء الخافتة ترسل أنواراً ملوّنة تطعن دائرة المسرح التي اعتلاها صاحب البذلة

الصفراء الفاقعة..

رأيته لأول مرة بوضوح.. كان يبتسم بانتصار.. وضع مسدسه بهدوء شديد على الأرض..

نظر حوله للحظات، ثم انفجر يضحك، حتى كاد أن يقلب على قفاه.. فرد ذراعيه القصيرين، ونضح فمه كلمات صدئة، أطلقها بصوت واضح، كلمة وراء كلمة:

– إصبعي عاب فقطعته.. غسلت عاري..!

المرّة الأولى والأخيرة في حياته يخوض مجاهل عالم لم يكن يعرفه ولا يلتفت إليه..

انتهت حرب الحصاد، توقفت السكاكين المجنونة عن قضم عاليات السنابل، وبدأت قطعان الماشية الفقيرة تغزو الفتات المتبقّي في قاع الحقول..

في ليلة لقائهما الأولى بعد الغياب.. كانت زوجته تنتظره بشوق، ترتدي ثوباً أحمراً شفيفاً وفاضحاً..

أغلق باب الغرفة..

وأطلق من صدره صبيّهُ المراهق الحبيس.. قفز معه إلى فراشها، وراح يداعب بأصابعه الراغبة تضاريس جسدها الرائع.. كما في كل الأوقات..

❋ ❋ ❋

كـان يــوم

أيقظتنـي زقزقات العصـافير المستوطنة أغصـان شـجرة السرو العملاقة التي يطاول ارتفاعها شرفة بيتي في الطـابق الثالث..

لم تكن مختلطة بزعيق زمامير بائعي المازوت، ولا مع الصـوت الحـاد لبـائع الكرشـات والمقادم المتجول قبـل طلـوع الشـمس، ولا مـع أصـوات النشـطاء المبّكـرين مـن بـائعي الخضراوات الطازجة المحمولة على ظهور الحمير والبغال ونهيقها وروثها.. فاستبشرت خيراً..

شعرت أن الصباح الذي حملتنـي إليه قبيلـة عصـافير، كأنني أسمعها لأول مرة، يحمل تباشير يوم ليس كالأيام..

واصبح شعوري هذا حقيقة عندما بانت زوجتي بوجهها الصــبوح، وزّر وردة حمــراء مغــروز بأناقــة فــي شــعرها المسرّح، تحمل مع ابتسامة صـافية عريضـة مرسومة علـى

محيّاها الصبوح ركوة قهوة ساخنة، وتدعوني بهمسات رقيقة لنحتسيها سويةً على الشرفة..

تبادلنا أجمل الحديث، كل شيء حولنا صامت وهادئ، تفيض علينا السماء روائح عطرة لا يشوبها فحيح دخان عوادم السيارات، ولا روائح القمامة والريجارات المفتوحة..

الشارع بريء كيوم ولدته أمّه، خال من الأكياس السوداء التي تلقى عادة من الطوابق العلوية في الليل البهيم، ومن فضلات وقشور الفول والبازلياء والخسّ التي تعودت أن أراها مفروشة حول حاويات القمامة..

ارتديت ثيابي، أخذت نفساً عميقاً حشوته في صدري مع شحنة اكبر من التفاؤل.. أحسست كأنني أطير في فضاء الرصيف النظيف، تصافحني بين الفينة والفينة ابتسامات الجيران وأصحاب المحلات وتمنياتهم الطيبة، ودعواتهم المخلصة..

أصل إلى موقف السيارات، فتتوقف أمامي تماماً سيارة سرفيس نظيفة، لا تفوتني ملاحظة السائق المؤدب، حليق الذقن، باش الوجه، سهل التقاطيع، أنيق في بذلته الرسمية، يستقبلني بابتسامة عذبة، ولا ينطلق بمركبته حتى أستقر باطمئنان على المقعد الوثير..

من خلال زجاج النافذة البرّاق أتمتع بمشاهدة كل جميل، شرطة تنظيم المرور بملابسهم الزاهية ذوات الجيوب

الصـغيرة، يزجـون تحيـاتهم الطيبـة إلـى سـائقي السـيارات العامّـــة والخاصّـــة، ولا يحملـــون دفـــاتر المخالفـــات ولا الصـافرات.. الإشـارات الضـوئية تعمـل بشـكل رائـع، معـابر المشاة تحظـى بـالاحترام والتقدير، وعقد الشـوارع تخلـو مـن الأطفـال بـائعي السـجاير المهرّبـة والمحـارم الورقيـة، ومـن المتسولين بشرائحهم المتفاوتـة بـين صـاحب عاهـة جسـدية يبرزها بتوجع على الناس، وبين صـاحب عاهة عقلية يبدي عورته..

وقـد لفـت انتبـاهي توقـف السـائق عـدّة مـرات ليسـمح للمشـاة بعبـور أمـين، يـدعوهم بابتسـامة تفـيض حبـاً، وهـذا التصّـرف الحضـاري انسـحب علـى مجمـل سـائقي السـيارات التي رأيتها، كانت جميعها تنساب بليونـة ورفق وهدوء، دون زعيـق أبـواق تتـدرّج أصـواتها صـعوداً علـى درجـات السـلم الموسيقي من أوله وحتى آخره، ودون تشفيط وتلبيط وسباب متعـدد الطبقـات، حتـى حسـبت أنهـا منزوعـة الأبـواق والكوابح.. الشوارع خالية من الحفر والمطبّات، وجوه النـاس رفاقي في الرحلة على قدر من السماحة والسعادة، لم يدس أحد علـى أصـابع قدمي، ولم ينتزعنـي أحد من مقعدي فـي طريـق دخولـه أو خروجـه، ولـم ينقـر أحـدهم علـى كتفـي يسـخّرني وهـو يمـدّ يـده بورقـة مـن فئـة المائـة ليـرة أناولهـا للسائق، وأنتظر مقرفصاً حتى أعيد لـه الباقي، يتناوله من يدي بقرف وكأنني ارتكبت ذنباً..

حقاً كانت رحلة قصيرة، لكنها ممتعة..

في السوق قابلتني الوجوه السعيدة، الأرصفة عريضة، خالية من بسطات الباعة، ومن عربات بائعي أشرطة الكاسيت وأصواتها الصدّاحة، ومن تزاحم السيارات والأكشاك والمحارس عليها..

الشوارع نظيفة.. الأشجار خضراء، وحيطان البنايات على الجانبين خالية من التشطيبات والحفريات والكتابات الملونة وإعلانات الوفيات..

أذكر أنني كنت أقرأ عبارة على حائط في ركن الشارع لم أفهمها أول الأمر حتى أفهمنيها أحد الأصدقاء، تقول "لا تبول هنا يا قليل الذوق" بحثت عنها ولم أجد لها أثراً..

أعمدة الكهرباء مرتّبة ومحفوظة ولا تحمل لوحات ولا إعلانات سخيفة، ولا يافطات أسماء الأطباء والمهندسين واختصاصاتهم، ولا دعايات مكاتب رجال الأعمال والملاهي ومطاعم الفراريج والكبّة المشويّة على الفحم..

وحتى أكون دقيقاً فقد شاهدت إعلانات ولكن على لوحات خاصّة، وفي زوايا وأماكن خاصّة أيضاً، أنيقة وملفتة، ومكتوبة بلغة عربية فصحى سليمة..

أكشاك الهاتف العمومية جاهزة بشكل ممتاز، ولا تأكل

الأجهزة المعلّقة فيها الفراطة المفترضة للترجيع، حتى أنني رأيت الناس يستعملونها لقضاء حاجاتهم الضرورية وليس لطق الحنك..

أمّا أكشاك باعة الصحف والمجلات فقد كانت تبرز بخطوط عريضة أنباء الانتصارات الوطنية المتواصلة على كل الأصعدة العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأننا على وشك الخروج من حظيرة العالم الثالث إلى صف العالم الأول مباشرة..

وقد لفت انتباهي تركيز العناوين الرئيسة للصحف على القوّة الشرائية المرتفعة لوحدتنا النقدية، والمحافظة على تدنّي أسعار السلع بأنواعها المختلفة، وتهلل للارتفاع المتنامي لدخل الأفراد، خاصّة رواتب الموظفين بمواقعهم المختلفة، حتى أن الدولة تدرس مشروع زيادة أيام العطل الأسبوعية من يوم إلى يومين، إضافة للعطل الفصلية والسنوية، مما فرض زيادة وتحسين مستوى ونظافة وخدمة المنتجعات والفنادق والمطاعم والمواقع السياحية والأثرية لتشجيع الناس على الصرف والبذخ لإبعاد شبح التضخّم..

شحنات من التفاؤل تغزو صدري، وتزداد رسوخاً في يقيني ساعة بعد ساعة.. وأكاد لا أصدق ما أرى بعيني المجردتين، وكدت أطير فرحاً عندما أنجزت بزمن قياسي لم يتجاوز الساعة مجموعة من الأعمال الهامّة والضرورية..

وكنت أحسبها تستغرقني أياماً إذا لم أقل أكثر، فقد دفعت خلال وقت وجيز فواتير الهاتف والكهرباء والماء وضريبة الترابية، بالمناسبة فقد أعلموني أن هذه الضريبة انخفضت بسبب زيادة التحصيل تبعاً للزيادة الهائلة في عدد البيوت المعدّة للسكن، والمساحات العمرانية التي ابتلعت الحزام الأخضر ووصلت إلى حدود البادية..

وفوجئت عندما توجهّت لدفع فاتورة الخدمات أن هذه الضريبة قد ألغيت من أصلها، أخبروني أن خزينة الدولة متخمة ويفيض عنها ما يردها من أموال ضريبة الترابية والكناسة والحراسة، وضريبة الدخل، وما يضاف من رسوم لصالح المدارس والمجهود الحربي والخدمات والقطع والوصل ونظام الشرائح في الاستهلاك على فواتير الكهرباء والماء والهاتف العادي والخليوي والإنترنيت والإيميل والفاكس والتلكس، ورسوم تسجيل الولادات والوفيات (بما فيها أثمان القبور وأجور الدفن) والوقوعات المختلفة الأخرى..

ومن رسوم توثيق عقود الإيجارات السياحية، ورسوم رخص البناء أو ممارسة المهن أو تأسيس منشآت ومعامل ومصانع وورشات صغيرة أو كبيرة، أو إقامة صالات للأفراح والأتراح والملاهي والكباريهات والمسابح العائلية، ورسوم استيراد السيارات والحديد وأجهزة الكمبيوتر والرقائق الإلكترونية وخلافه..

وما يدخل إلى الخزينة من أموال طائلة كرسوم شكلية على تصدير منتجاتنا الوطنية من الملابس القطنية الداخلية، واللانجري النسائي، ومن تصدير كتب تعليم الطهو ومن إنتاج معاملنا الزاهرة من البسكويت والعلكة وخلافه، ومن قيمة الطوابع البريدية والأميرية اللازمة للدمغ عليها في الأوراق الرسمية المطلوبة للمعاملات في المحاكم أو في الدوائر الحكومية الأخرى..

ومن الرسوم المحصّلة من المخالفات المرورية والصحية والتموينية والجمركية والمالية والعقارية والبلدية، وحماية الغابات ومكافحة التسول ومكافحة الدعارة والحق العام و..الخ..

ومما أثلج صدري طريقة معاملة الموظفين لي ولأمثالي من المواطنين.. أحدهم استقبلني بابتسامة عذبة، ثم قدّم لي كرسيّاً أستريح عليه، وكأس ماء بارد، أما الآخر فقد أصرّ أن يدعوني إلى فنجان من القهوة، وقبل أن أفرغ من احتسائه، أنجز ما جئت من أجله..

قرأت وأنا على الكرسي المريح أنتظر، يافطات كثيرة ملصقة على أبواب الدوائر الرسمية أعجبتني أيما إعجاب.. واحدة تقول:

– أخي المواطن، أنت تدفع راتب الموظف ليقوم على

مساعدتك وإنجاز معاملاتك..

وتقول أخرى:

– شعور الأفراد بالمسؤولية، أول الخطوات على طريق الحضارة..

وثالثة تقول:

– نلقاك بابتسامة، ونوفر وقتك وجهدك..

وشعارات كثيرة على هذا المنوال جعلتني أزداد ثقة بنفسي، وثقة بالمستقبل..

حملت أوراقي القليلة، ورحت أتجول في شوارع المدينة كأنني طير يتنقّل على أغصان شجرة في غابة كالجّنة، كنت سعيداً منطلقاً ومنشرحاً، وعند الظهيرة قصدت منزلي..

تصادف أن كان وقت انصراف طلبة المدارس، وانتشارهم المحبّب في طريق عودتهم إلى بيوتهم بعد جهد يوم دراسي، رأيت السيارات تبطئ من سرعاتها وتتوقف غالباً لتسمح لهم بالعبور الأمين، لم أسمع تشفيطاً ولا تزميراً ولا موسيقى صاخبة من مسجلات السيارات، ولم أر حركات بهلوانية من راكبي الدرّاجات النارية، ولا تحرّشاً بالصبايا، كان كل شيء يسير كما تسير الساعة..

حتى بائع الذرة المسلوقة الذي كان صوته البغيض وصوت طرقات ملقطه على طرف الحّلة يملأ الحّي صباح مساء، رأيته يقف مع عربته النظيفة في ركن، يرتدي معطفاً

أبيض نظيفاً..

ولاحظت اختفاء الرجل الخبيث القصير الذي يؤجر الدراجات النارّية الصغيرة منزوعة أنابيب العوادم إلى الفتيان المراهقين..

كان الطريق الموصل إلى بيتي هادئاً، الأطفال والصبية الصغار في بيوتهم، لا أثر لهم ولا إلى كراتهم الثقيلة التي تضرب النوافذ، ولا أثر لشقف البلاط التي كانوا يلعبون بها "السبع حجار" كنت أسمع صوت خطواتي على الرصيف، ولا أثر لأصوات الصبية، ولا لصفيرهم..

دخلت بيتي تملؤني سعادة فيّاضة، تناولت طعام الغذاء مع أسرتي وتبادلنا الحديث الممتع، ثم تناولنا أصناف الفاكهة والحلويات وكؤوساً من الشاي، بعدها أحسست برغبة للقيلولة..

في اللحظة نفسها التي استلقيت على الفراش، فرقعت في فضاء الحي طرقات من مطرقة حديدية، على جسم حديدي، ثم انطلق صوت كصفير قطار بخاري قديم ينبح.. غاز.. غاز..

قفزت من فراشي فزعاً، اكتشفت أنني تأخرت عن دوام عملي الصباحي..

ثمن الوظيفة

قلقة وقفت أمام اللوحة النحاسية البرّاقة، المثّبتة بأناقة على الباب البني الثمين..

[الدكتور ممتاز.. استيراد وتصدير]..

نقرت الباب بإصبعها نقرتين خفيفتين، وانتظرت. فلم تسمع شيئاً..

اقتربت من الباب أكثر.. لاحظت "كاميرا" منصوبة على أعلى الزاوية، مصّوبة عليها تماماً.. فارتّدت..!

في اللحظة نفسها فُتح الباب.. فدخلت بحذر.. قادها "الموكيت" الأحمر إلى غرفة صغيرة..

– ماذا أستطيع أن أخدمك.؟

سألت بصوت يشبه الهمس.. شاّبة في عمر الزهور.. بيضاء، أضافت المساحيق الكثيرة على وجهها مسحة من

البريق الشهي..

– أنا "ندى".. تهاتفنا في الصباح، بشأن الإعلان في صحيفة "الخدمات.."

خرجت الشابّة من وراء الطاولة.. ممشوقة كرمح، يكاد صدرها الأبيض الناصع يقفز من فسحة القميص الأسود الضّيق القصير، يترك مسافة كافية لإبراز تفاصيل البطن العاجي، والظهر الأملس البضّ، والصرّة المغروزة، كحلمة نهد مقلوبة..

– تفضلي..!

أشارت بأصابعها الرفيعة إلى المقعد الجلدي المنخفض.. وراحت تتثّنى بخطوات كالنسمات داخل "الفيزون" المخطّط الملتصق بفخذيها الممتلئين، ولم تلبث أن غابت وراء الباب الكبير...

بفارغ الصبر تنتظر صباح كل سبت صدور "صحيفة الخدمات"...

تلتقطها على عجل، تقلّب الصفحات الهشّة...

فرص عمل... فرص عمل.. هه..

– مطلوب خريج تجارة للعمل بتسويق مواد غذائية...

– مطلوب سيدة مقيمة لخدمة أسرة فاضلة...

– مطلوب آنسة، العمر بين 18–22 سنة حسنة

المظهر، للعمل "سكرتيرة"، غير محجبة، الخبرة غير ضرورية، والراتب مغري...

أغمضت عينيها بقرف.. وتمتمت:

- "بقي أن يقول، وعاهرة.."

- مطلوب مندوب "ـة" تسويق، راتب + نسبة جيدة.. مطلوب مندوبة تسويق "لانجري".. ومواد تجميل..

- مطلوب مندوب "ـة".. مطلوب مندوب "ـة".. مطلوب.. مندوب "ة".. مندوبة.. مندوب...

- مطلوب موظفة للعمل في شركة تجارية كبرى، تحمل الشهادة الثانوية، إلمام بالحاسوب..

أمسكت القلم بلهفة، وأحاطت الإعلان الأخير بحلقة سوداء واضحة...

كل يوم سبت بعد أن تجمع العديد من الطلبات المعقولة، تبدأ جولة أخرى مع الهاتف، والمقابلات..

العجيب في الأمر أن أرباب الأعمال يتبعون نظاماً قد يكون عامّاً ومتفقاً عليه فيما بينهم..

نشرة مطبوعة "استمارة" تحتوي على أسئلة..

الاسم.. العمر.. الشهادة.. الخبرة.. الراتب الأخير..

خرجت الشابة البيضاء من غرفة المدير، وقدّمت إليها وهي تتلوّى بغنج "استمارة" أضافت وهي تسقط الحروف من

بين شفتيها المكتنزتين..

- الفقرة الأخيرة هي الأهم..

وأشارت بطرف ظفرها الطويل الملّون بالأسود إلى ذيل الورقة..

العمر.. الشهادة.. الخبرة.. الوضع العائلي، ولمحة عن السيرة الذاتية..

أمسكت القلم، تعودت أن تملأ مثل هذه "الاستمارات" لكنها لم تستعد أبداً للإجابة عن أسئلة على هذا القدر من الخصوصية..

هل تكتب متزوجة أم مطلقة.؟

وهل يعني أحد فيما إذا كانت متزوجة أم مطلقة..؟

هل تكتب الحقيقة..؟

من يستطيع أن يفتح ملف حياته في أي وقت ولأي كان..؟ تلك الجروح التي خلفت وما تزال قروحاً غائصة في العمق، تصرخ كل لحظة وتتهم وتؤكد "الفشل والإحباط والخيبة.."

من يملك الحق في معرفة كل ذلك.؟

تزوجت ممن تحب.. شاباً صغيراً ووسيماً، يقف على بوابة الدخول إلى معترك الحياة، رضيت به، وقاتلت لنصرة اختيارها، رغم اعتراض الأقربين.. ثم قاتلت بصبر وتحمّل

يفوق التصور ست سنوات كاملة..

عاشت مع أهله الكثر في بيت واحد، وغالباً ما كانت تقضي أسابيع متتالية في بيت أهلها، يحملون عنهما مصاريف الحياة وتكاليفها. خاصة بعد أن أنجبت طفلها الأول، وحين أنجبت طفلها الثاني.. طلّقها..

أقام علاقة حب مع واحدة تشبه الشابة البيضاء، ليس بشكل الخلقة، ولكن بالمساحيق والقميص "والفيزون" وتعرف أيضاً كيف تتحصّل على المال الذي بدأ به أول عمليات النصب والاحتيال، أوصلته أخيراً إلى مغادرة البلاد هرباً من "المنصوب عليهم" وملاحقاتهم القضائية والشخصية له..

وبهروبه انقطعت المبالغ الشهرية المتواضعة التي كان يدفعها قسراً إليها عن طريق دائرة التنفيذ في المحكمة نفقة عن ولديه..

أضاف القاضي يومها إلى حيثيات حكم الطلاق..

"كونه طلاقاً تعسفياً لا يستند إلى حجة كافية"

كتبت:

"درست وحصلت على الشهادة الثانوية، تزوجت وأنجبت مثل خلق الله، واحتاج للعمل.."

اختطفت نظرة إلى الشابة الجميلة، وجدتها منهمكة بالعمل..

أطلّت رأسها عبر الردهة المقابلة، تبدو واسعة، ومطلّة على الشارع الخلفي للحي الراقي.. لاحظت طاولة طويلة وأنيقة عليها جهازا "حاسوب"، أخفت ابتسامة..

– لا شك أن عملها سيكون هاهنا..

إيه.. كم هي بحاجة للعمل، الطفلان يكبران، والطلبات تزداد ثقلاً عليها وعلى والدها المسّن..

نظرت إلى الجدران المزينة بلوحات صغيرة، ورصينة..

كل ما في هذا المكان الهادئ الجميل الوثير، يوحي بالدعة والاطمئنان.. حتى نسمة العطر الخفيفة المميزة تضفي على فضائه مسحة من "الأكابرية"..

حملت "الاستمارة"، وألقت عليها نظرة أخيرة، ثم ناولتها بأدب جم إلى الشابة البيضاء..

استرخت على المقعد الجلدي المنخفض..

لاحظت وجود "كاميرا" أخرى فوق الباب العريض مصوّبة عليها.. فلم تهتم..

بعد قليل أضاءت "لمبة" خضراء على طاولة الشابة البيضاء..

ابتسمت لها بصفاء..

– تفضّلي..

وأشارت إلى الباب العريض..

الغرفة واسعة مريحة، تطل نافذتها العريضة على شارع الحيّ الراقي، وحدائقه الجميلة، ينضح فضاؤها برائحة ناعمة منعشة..

رجل يجلس بوقار خلف طاولة كبيرة فخمة تعّج بالأوراق والأدوات..

لم يرفع ناظريه عن "الاستمارة" بل طلب إليها الجلوس وأشار إلى مقعد جلدي بأربعة دواليب..

لاحظت شاشة عرض صغيرة مثبّتة على زاوية الطاولة، ولاحظت أيضاً صورة متوسطة الحجم معلقة على الحائط المقابل فوق الباب العريض لسيدة جميلة.. نصف عارية..!

- ماذا عن اللغة..؟

قال الرجل وهو لا يزال يقرأ في "الاستمارة"

- أقل من المتوسط في الإنكليزية.. ما تعلّمته من "البكالوريا" فقط..!

- لا يهم..

سكت قليلاً:

- وماذا عن "الكمبيوتر"..؟

- فوق المتوسط..

- ماذا تعرفين عنه..؟

- برامج "الأوفيس" وورد، أكسل، و..

- لا يهم..!

نظر إليها هذه المرة، بدا أكبر سناً من العمر المذكور في الشهادات الكثيرة المعلّقة على الجدران "دبلوم هندسة، ليسانس تجارة، دكتوراة إدارة أعمال.."

- ماذا يشتغل زوجك..؟

سأل الرجل فجأة.. وقد وقع السؤال عليها كالصاعقة، لكنّها تمالكت..

- أعمال حرة..

أجابت وهي تعبث بحقيبة يدها..

وقف الرجل، بدا أقصر مما توقعت، يتجاوز الستين من العمر، نحيلاً، أصلعاً، ضيّق الكتفين، حليق الشارب، حاد الذقن..

خطا بضع خطوات في المساحة المتبقية بين المقاعد وطاولة الوسط.. أشار إلى طاولة صغيرة أخرى في الركن، عليها جهاز "حاسوب"..

- تفضّلي..

جلست على المقعد الآخر وكان بأربع عجلات أيضاً..

- اكتبي "دوور"..

كتبت "دوور"..

مـد يـده النحيلـة وضـغط علـى إصـبع المحـي.. كأنهـا أحسـت أن كوعـه لمـس صـدرها عـن قصـد.. جـرت المقعـد قليلاً إلى اليمين..

– اكتبي "فلوور"

كتبت "فلوور"

مد يده ومحى ما كتبت، كان قد جلس هو الآخر علـى مقعـد متحـرك، وأعطـى لنفسـه دفعـة جعلـت ركبتـه تصـدم فخذها..

لا بد أنه يمتحنها..!

جرت مقعدها حتـى التصقت بالجدار.. وتكورت علـى نفسها..

– اكتبي.. "ماي نيم إز"

كتبت بإصبع واحد.. "ماي..

لـم يبق متسع لجر المقعد إلـى أي مكـان.. وضـع يده على كتفها.

– هل أنت مصرّة على لبس الحجاب..؟

قفـزت كمـن قرصـتها حشـرة سـامة، وانسـلت مـن وراء المقعد المتحرك..

– دكتور ممتاز..؟

سألت ولا تكاد تصدق..

نظر إليها بدهشة، وتابع يقول وكأن ما حدث لا يعنيه..

- مبدئياً خمسة آلاف ليرة لدوام واحد، وعشرة لدوام كامل.. كما ترين العمل عندي سهل..!

حملت حقيبة يدها بهدوء، فتحت باب الغرفة العريض، وقع نظرها مباشرة على الشابة البيضاء التي ابتسمت بخبث..

بدا لها أن قميصها الأسود الضيق انحسر عن مساحة أوسع من صدرها الأبيض، والتصق "الفيزون" المخطط المثير أكثر على فخذيها..

نقلت نظراتها الغاضبة بينهما.. وبصقت على الموكيت الأحمر..

شدت الخطى إلى الباب الخارجي، وقبل أن تغيب نظرت ثانية إلى الشابة البيضاء، أشارت بإصبعها إليها من فوق إلى تحت ثم قالت بصوت مرتفع ومسموع:

- من أجل هذا تنزلين "بنا" إلى مجتمع القرود..

صفقت الباب خلفها بقوة.. نظرت إلى عدسة "الكاميرا" بحقد، أيقنت أنها تطل من الشاشة المحتلة زاوية الطاولة على وجهه المسخ.. صكت أسنانها، وصرخت:

- "دكتور ممتاز".. يا ابن الـ..

نزلت الدرج على عجل، وحين صارت وسط شارع الحي الراقي تسرب سؤال تافه إلى رأسها المتعب..

- متى يأتي يوم السبت..؟

❁ ❁ ❁

وجعـــي هــو المكــان

أتسألني.؟

حسبتك تفعل عندما سبحت في لحظة سحرية كائناً من لحم ودم بين جفنّي والحدق..

رأيتك.؟ أقسم أنني رأيتك.! تحملني في بياض عينيك المتعبتين وتحمل (كما كنت في كل الأوقات) إرثاً يخصّنا..

تقتلعني من وحدتي وغربتي وشيبي ونزيفي، وتردني في اللحظة نفسها إلى زمن سحيق أنهكنا.

تحملني يا وجعي فوق صدرَك، ثم تبكي بين يدي، تركعُ في محرابنا، تستغفرني، فأغفر..

أتذكر.؟ ما زال هو المحرابْ الذي عرِفت، ينّز رطوبة تقتل حتى الصراصير، ويصفر كلما عبثت بصفائحه الريح.

ما زال معلقاً صامداً بين ضفتين ليس لهما ملامح..

أتذكر.؟ يوم ساقني قدري إليك، وكنت طفلاً لم تزل، تجاوزت بك لحظات خلقك الأولى، ويا لها من لحظات زحفت بطيئة مستحيلة..

من يصدق.؟ طفلةُ ما تخطت ثماني سنوات من عمرها ترعى طفلاً وضعته أمه للتوّ، وغابت وراء غلالة بيضاء قبل أن تتخّلص من حبل سري يربطك إليها.؟

قالوا ماتت.!

فجأة ولد الفزع.!

هل تمضي الحياة بنا أم تتوقف.؟

هنا في صمت المحرابِ المعلّقِ بين فضائين صحوتُ عليك وعليها، وجدت في شراييني دفعةً واحدةً مدادَ الأب والأم، وكان يجب أن نخترق الحاجز المستحيل.!

ثم حملتك بعد حين والخوف يصرعني كما صرَعك نزيزه المتواصل، المشحون بحبيبات غبار رطبة أتلفت رئتيك فيما أتلفت..

حملتك يا عمري ومضيت بك إلى مكان ما، إلى ركن ما، تحت سماء ما..

صعقتني أحذية في الطريق لم أر غيرها في الزحام، وأنهكتني رحلة طويلة طويلة.

غرزتك خلالها على كتفي، وغرزت سنوات عمري

العشر فوق كتفي الثاني..

أتذكر.؟

كم كنت أخاف أن يغلبَني النعاسُ فأنام، وتغفل عيناي ويداي عن أكوام أدوية يجب أن تتجرعّها، قالوا:

- في معجزة خليطها يكمنُ سرُ حياتك..

فأربط ضفيرتي الصغيرة بخيط إلى مسمار في أعلى الجدار، وعندما يغلبني نعاس طفولتي، ويكادُ يميلُ رأسي، يشّدني الخيط، فأصحو..

أنظر إليك، أراقب خلجات جسدك الصغير بوجل، أتابع تردد أنفاسك، أعدّها، أقيس ما بين الواحدة والأخرى، أحسبها تارة تنقص فيعتصرني قلبي، وتارة تزيد فأعتصره.. أقوم فوق صدرك يعلو ويهبط، أخيطه في نسيجي، فيغدو قطعة مني، أُحصي ما يعتمل داخله خفقة خفقة..

كم طال بنا المقام وتكرر قبل أن نعودَ دائماً إلى محرابنا..

يومها رأيتك كبرت أكثر، تشبّثت بكفيّك وركبتيك بي، قالت لي عيناك لأول مرة أنك الآن تعرفني، فحملتني رفوف نوارس إلى دنيا تزيّنت في أحلامي، فرأيتها حقيقة تنبض بالروح.

قلت لي، وضفيرتي تداعب صفاء جبينك، أنك الآن تعرف والحزن يبدأ مع رجفاتك الأولى أن ليس لك سواي،

ولم يبق لي سواك..

اليوم فقط بعد غيابك الذي أضنى جسدي، وأعمل فيما تبقى من عظامي تفتيتاً وتمزيقاً، فقوّس بعضها، وأرجف بعضها الآخر، فجأة تقتحم أشعة الشمس محرابنا عن قصد، ربما أشرقت من مكان آخر، من مكان أنت فيه الآن تذكرني أو لا تذكرني، أشعّة شمس رائقة حملتها رّفوف النوارس ذاتها، وحّطت بها تماماً فوق موقع النزيف..

كان الضوء أقوى من جلدي، فأطبقت جفني..

في اللحظة نفسها، رأيتك.؟ أقسم أنني رأيتك.!

كنت تسبح وتتخبط، رأيتك تكاد تغرق، تمّد لي يدك النحيلة، وسعالك المتواصل، ورشقات من دمك القاني، مددت لك يدي وعمري، وانتشلتك.

أتدري يا عمري.؟ انتشلتك من الوادي السحيق ذاتِه الذي قذفتك إليه بيدّي هاتين ذات يوم.. فأضاءت وجهك ابتسامة.. كما كنت تفعل كلما أتيت ذنباً وأردت لك العقاب..

أتذكر.؟

أقودك إلى المدرسة قسراً، تسألني، لماذا.؟

ولأنني لا أعرف، أقودك بإصرار أكثر، وأنتظر أمام البوّابة ساعات طوال حتى موعد الانصراف لأعود بك إلى المحراب، أطعمك بيدي وأسقيك بكفي، وأراقب لحظة

بلحظة بريق عينيك يكاد يغفو فوق الحروف السوداء فأوسدك صدري وأغطيك بعمري..

يا وجعي وأنت تكبر، وتكبر، وبين الحين والحين تصرعك نوبات سعال خلفّها مرض ذلك اليوم، فأحملك إلى فوق، إلى سطح المحراب، هناك حيث السماء أقرب، أجمع بين أصابعي كومات هواء أحشوها في رئتيك، أعطيك أنفاسي، أحسب أنني أنتشلك في لحظة سحريّة من براثن الموت..

حتى عندما كبرت صرت تعرف الطريق، تزحف إلى فوق وحدك، تعّب قدر ما تستطيع من الهواء، بعدها تضيء وجهك ابتسامة رائعة الصفاء..

ولا أملك إلا الصبر والأمل والعمل المنهك، مرّات في مستودعات تغليف الصناديق المحشوة بأصناف من الحلوى في أقبية المرتزقين، ومرّات عاملة على آلة كي الألبسة الجاهزة في مشغل حقير.

وبين هؤلاء يجتّرني عمري، وينساب شبابي، أقاوم ضعفي بضراوة ولا استسلم..

بنيت بيني وبيني صفائح لا تخترقها رغبة ولا هوى، وكنت وحدك الحاضر في كل حين، والعمر يمضي، وأنت تكبر..

أتذكر.؟

يوم سألتني أين أبي وأمي..؟ سألتني، من أنا ومن أنت..؟

أتذكر..؟ لم أكن أجد لأسئلتك أجوبة..

يا وجعي.. لم أكن أملك الجواب..

من أنا أو أنت..؟

كل ما أعرفه أننا رفيقا رحم واحدة.. وقد عرفتها، عشت معها، أحببتها، كانت مثلنا لقيطة هذا العمر، معصورة هي الأخرى بين الرحى والطباق، مصهورة كل ليلة كل ليلة في أتون محرق حدثتني عنه طويلاً، كنت صغيرة ولم أدرك..

عندما كبرت قليلاً أدركت أننا أنا وأنت نبتنا في لحظة قاتمة من حجر صلد أصم، جئنا من مكان على خارطة التاريخ، لم أعد أذكر منذ متى ولا من أين.

قالت ألف مرة أننا فتات أب تبخر مثل قطرات الندى، ولم يفارق لا هو ولا المكان حلمها إلا ليلة لفظتك.. وماتت..

مسكينة كانت، وحزينة عاشت، ضيعتّها ذكرى ضبابية مجهولة، وجرفتها طواحين الحياة، ولم تبق لها أكثر من المحراب والمكان والحلم بنا..

من أجلنا، من أجلنا فقط..

سألتني يومها، فسلكت السبيل الهين.

قلت ماتا.. كانا عظيمين وماتا.! وأغلقت باب السؤال..

تشبثت بك، ورفضت كل الرجال، سمعت نصيحة لأمي ما زالت تضج في رأسي..

- أخوك أخوك ولا كل الرجال.. كلهم في المصيبة سواء، يصهَرون ويمضون، يزفّون شعارات فارغة جوفاء، ويخلّفون وراءهم الفتات وبذور الفجيعة..

علمتني أن أخاف ظلمة الطريق، قالت أن لا شيء يستحق..

كنت صغيرة أول الأمر فلم أدرك، عندما كبرت رفضت كل الرجال إلاّك..

حسبتك أنت دون العالمين تبقى عمري ورفيقي وشبابي..

لم أدرك أن يوماً سيأتي تفزعني فيه أسئلتك ولا أجد لها جواباً، كبرت يا عمري، وكبر السؤال..

من أنا.؟ ومن أنت.؟ من نحن في هذا العالم الزاخر بألوان الطيف فوق سطح المحراب ووراء بابه، هذا الإرث الذي لم تملكّنا الدنيا سواه هذا المعلق في فضاء ما، على رقعة من الزمن، وسط عالم غريب ربما (ليس لنا) وكنت أتعذب.!

كيف لا أقدر أن أكون نبع المعرفة الغزير أمام رؤيا تفتح طفولتك، صدّقني، حتى عندما أصنع جواباً ما أسخر به من نفسي وأقوله، أدرك أن العمر لم يترك لي مساحة للمعرفة، وأن العالم هذا الكبير الذي شّد اهتمامك يريدني ويجعلني أكثر جهلاً من ماعز الجبال.!

فجأة توّقف على لسانك السؤال، أدركتَ أنه يعذبني فكتمته في صدرك.

تساءلت ألف مرة هل يتسع صدرك لأشياء أخرى.؟

أتذكر.؟

هذا الذي أسميته أنت محراباً، كنت أسميه جحراً، كما أسمته أمنا..

عندما كبرت يا عمري أسميته محراباً.. قلت أن الجحر لا يتسّع لأكتاف الموتى.. وأدركت فيما بعد أن المحراب وحده رغم قدسيته قد يتسع لمن يموت راكعاً أو جالساً، لكنه أبداً لن يتسع لمن يملك إرادة الموت واقفاً..

لفظتَ حاضرك الذي بنيته لك إصبعاً بعد إصبع، وحَملتَ همّك دون همّي، ورضيتُ لك الرحيل..

قلتَ:

– بضع سنوات ثم أعود.. أنت أمي وأختي ورفيقتي، أحملكِ عرفاناً على حصان أبيض يخّب بين القارات، نخوض عليه مجاهل العالم، نترك فوق كل معلم فيه أثراً،

وأجد معكِ المكان المغّيب، نزيّنه بالنقاء، ونجعله محراباً حقيقياً يتّسع لكلينا واقفين أو ساجدين، ويقدر أن يشحن في صدورنا قدر ما نحتاج من هواء نقي، يطهّرنا، يطهّرنا..

زيّنت لي، وأغريتني، ومضيت..

كتبتَ لي ألف رسالة في ألف يوم، أحفظها تحت جلدي، أفردها ما زلت كل ساعة، أخطّها كحلاً حول جهد عيوني، وأصبغ من مدادها الأسود حلّة شيبي..

فجأة توقف كل شيء، لم أعد أذكر منذ متى، ومنذ متى ضاقت الدنيا وأطبقت الصفائح من حولي.. صمت كل شيء، ونزفت الحياة في جوفي صريراً صدئاً..

توقفت نبضات سعال عشت على صداها، وجفّت مناديل البقع الدامية.. لم أعد أذكر منذ متى.؟

أتذكر.؟

عندما اقتلعوك من المشفى لأننا لا نملك ثمن العلاج.! وعندما اقتلعوك من المدرسة لأنك سألت عن شيء محرم عليك فيه السؤال.! وعندما اقتلعوك من صلب المكان حتى ذلك الجديد، وزرعوك قسراً وأنت تحمل الإرث "يقولون صباح مساء أنك تحمل الإرث" تحت يافطة كبيرة مكتوب عليها بخط رديء "شعبة الأجانب"..

أتذكر يا عمري تلك الزوايا التي حملت بكاءنا ونحن نصارع باللحم خفافيش الخطيئة، ندافع عن حق لنا في

الحياة ليس أكثر.. أتذكر.؟

الآن يحاولون اقتلاعي من المحراب.

المحراب يا عمري، حتى هذا الضئيل الضئيل..

أتذكر.؟

فيه فتات أب لنا تبّخر في ليلة ظالمة.. فيه ريح أمنا، مازالت تئن وراء حبل سري يربطها إلي وإليك..

على أرضيته الخشنة سفحت شبابي وعمري.. وعلى جدرانه المذبوحة بشظايا سعالك ما زالت تنزف أسئلتك وحيرتك وآهاتك..

يا وجعي المخبأ في مكان ما.. في زمن ما.. تحت سماء ما.. صمدتُ حتى اللحظة رغم شيخوختي تشدني إلى القاع بعنف..

تشبّثت بأظافري وأسناني..

ترى، لو أنهم يقتلعون المحراب من بين أصابعنا.. أين نمضي..؟

هو المكان.. محراب أو جحر أو سمه ما شئت.. وحده الآن ما تبّقى لك.. وما تبّقى لي..

هو الإرث الوحيد الذي أملك عليه السلطان، وهو الوحيد الذي أستطيع أن أطمئن فيه عليك..

هكذا علمّتني أمي.. وهكذا أعلمّك..

❁ ❁ ❁

المحتــوى

❁ ❁ ❁

المؤلف: عدنان كنفاني

عضو وأمين سرّ جمعيّة القصّة في اتحاد الكتّاب والصحفيين الفلسطينيين - "فرع سورية"

صدر له:

- *غسّان كنفاني، صفحات كانت مطويّة.. سيرة*
- *حين يصدأ السلاح.. قصص*
- *قبور الغرباء.. قصص*
- *رؤى.. مشاركة مع مجموعة قاّصين*
- *بروق.. مشاركة مع مجموعة قاصّين*
- *بِدّو.. رواية*
- *على هامش المزامير.. مجموعة قصص قصيرة*
- *أخاف أن يدركني الصباح.. قصص*

❀ ❀ ❀

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

أخـاف أن يـدركني الصـباح : قصـص / عدنان كنفاني–
دمشـــق: اتحـــاد الكتـــاب العـــرب، 2002 –
124ص؛ 20سم.

1- 813.01 ك ن ف أ 2- 813.009564 ك ن ف أ

3 – العنوان 4- كنفاني

ع- 2002/1/21 **مكتبة الأسد**

❑❑